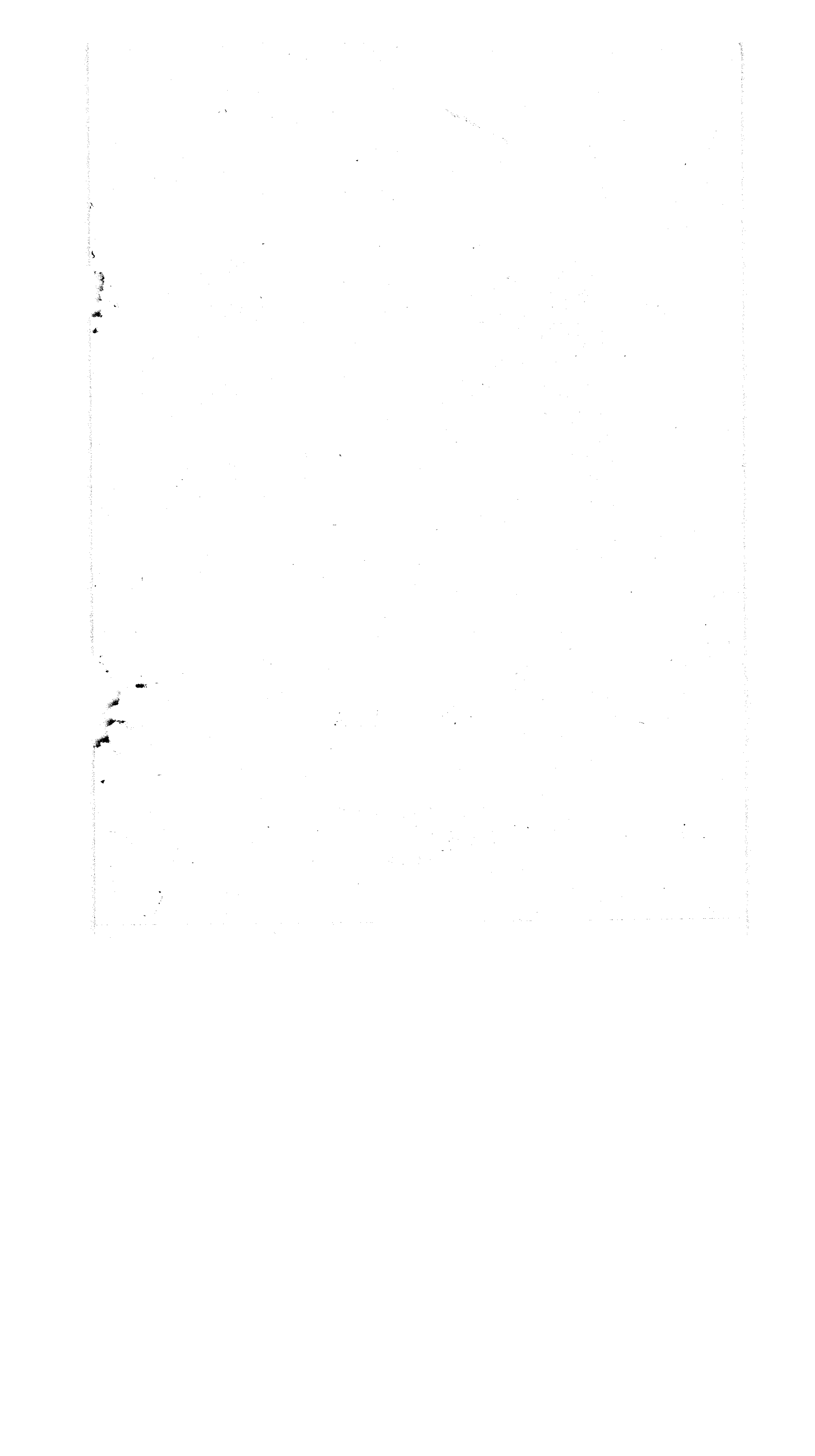
الدكتور
فتحي فريد

دروس تطبيقية من علم البيان

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٠٦٧٢٤





مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على افضل العرب بيانا ، واكمل الناس خلقا ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه .

وبعد

فالبلاغة اثرها فى الحياة كبير ومهم ، فإنها على الجملة ترسم لك السبيل ، وفى عمومها توضح لك النهج الذى تنهجه ، وتحدد لك الضوابط والمعايير التى تاخذ بها فى تعاملك مع افراد المجتمع ، بإقناع الواحد منهم بما ترى ، بادخال ما تعتقده فى قلبه وتمكينه من نفسه فى صورة مقبولة ومعرض حسن .

فلا يقف اثر البلاغة عند النظر فى النصوص الادبية لاستجلاء محاسنها ، واظهار معانيها ، والموازنة بينها — بل تتعدى ذلك المجال المحدود لتتصل وتشارك فى معظم شؤون الحياة ، فهى اللغة التى تناسب كل إنسان ، وتلائم كل ذوق ، إذ ان لكل طريقة معينة يؤخذ بها فى التخاطب معه ، ومحاولة اقناعه . طفلا كان او شيخا ، رجلا او امراة — طالبا او استاذا ، مهندسا او طبيبا ، الى غيرهم — والبلاغة هى التى تدلنا على تلك الطريقة ، فهى مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وإذا كان للبلاغة المكانة السابقة ، فان البيان وهو احد أركانها له من تلك المكانة حظ واف ونصيب وافر ، ويظهر اثره جليا كل يوم فى غير ما أمر من أمور الحياة ، فى هؤلاء الذين يحوزون قصب السبق فى دراساتهم ، ومن يحكم لهم فى خصوماتهم ، لقوة بيانهم ، وبفضل اقتدارهم على الاقتناع والتاثير . لذا كان اثره فى الحياة عظيما ،

ومنزلته عالية وعد من اجل نعم الله على الإنسان ، وصدق الله إذ يقول : (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان . علمه البيان) .

ونامل أن تقف فى هذه الصفحات والتى نقدمها عنه على بعض منزلته وأن تهديك إلى إدراك ثماره واسراره .

والله الهادى إلى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

علم البيـــان ـــ منزلته ـــ معنـــاه ـــ وجـــوهه

البيان من أخص نعم الله عز وجل على الإنسان ، إذ به يتميز عن غيره من سائر المخلوقات ، وصدق الله إذ يقول : **(الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيـــان)**(١) ، ويتباين الأفراد بمقدار ما لديهم من مقدرة على البيان ، كما يتمكنون من قضـــاء حوائجهم وحســم مشكلاتهم ببيانهم الساطع ، وبرهانهم القـــوى ، ولذلك استأذن سيدنا موسى عليه السلام ربه أن يصطحب معـــه إلى قومه أخاه « هرون » الذى كان يفوقه فى البيان حتى يضمن إستجابة فرعون واتباعه لمـــا جاء به من عند الله **« وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى انى أخاف أن يكذبون »**(٢) .

كما يتمكن الكتـــاب والشـــعراء من اقنـــاع القـــارئين ، وامتـــاع الناظرين ، والتأثير على عواطف الدارسين ببيانهم ومدى المـــامهم بأصول هذا البيـــان واحاطتهم بأسبابه .

ولنقرأ معـــا ما يقوله شيخ البـــلاغة عبد القاهر عن فضيلة البيان فى مقدمة أسرار البلاغة بعد أن حمد الله وصلى على نبيـــه محمد ﷺ إذ قال : « اعلم أن الكلام هو الذى يعطى العـــلوم منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف عن صورها ، ويجنى صنوف ثمرها ، ويدل على سرائرها ، ويبرز مكنون ضمائرها ، وبه إبان الله تعالى الإنسان من ســـائر الحيوان ، ونبه فيه على عظيم الامتنان ، فقال عز من قائل **(الرحمن علم القرآن خلق**

---

(١) ســـورة الرحمن : ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) ســـورة القصص : ٣٤ .

الانسان . علمه البيان) فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ..
ولتعطلت قوى الخـواطر والأفكار من معانيها ، واستوت القضية فى
موجودها وفانيها ، نعم ، ولوقع الحى الحساس فى مرتبة الجماد ، ولكان
الادراك كالذى ينافيه من الأضداد ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ،
والمعانى مسجونة فى مواضعها ، ولصارت القرائح عن تصرفها معقولة ،
والأذهان عن سلطاتها معزولة ، ولا عرف كفر من ايمان ، واساءة من
احسان ، ولما ظهر فرق بين مدح وتزيين ، او ذم وتهجين ، ثم ان الوصف
الخاص به ، والمعنى المثبت لنسبه ، انه يريك المعلومات بأوصافها التى
وجدها العـلم عليها ، ويقرر كيفياتها التى تناولها المعرفة اذا سبمت
اليها(٣) :

فلعلك اقتنعت بعـد ما تقدم بقيمة البيـان ، وعظيـم منزلتـه ،
فما هو علم البيـان ؟ البيان : معناه الافصاح والاظهار ، وقـد عـرفه
البلاغيون بانه : علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح
الدلالة عليه مع المطابقة لمقتضى الحـال .

فكرم محمد مثـلا معنى من المعـانى يمكنك ان تبرزه فى أكثر من
تعبير تختلف فيما بينها من جهة الوضوح وتقرير المعنى المراد بما يتناسب
مع احـوال المخاطبين .

فقد تسلك طريق التشبيه بوجوهه المختلفة قائلا : محمد كالبحـر
عطاء ، ومحمد كالبحر ، ومحمد بحـر ، وأبلغها هو الأخير الذى حـذف
منه وجه الشبه والأداة ، فكان اكثر اثبـاتا وتقريرا لكرم محمد .

وقـد تسلك طريق المجـاز بانواعه المختلفة من مرسـل وعقـلى
واستعارة قائلا : أيادى محمد لا تنـكر على رفاقه — أو كما قال الشاعر :

ما زلت تتبع ما تولى يدا بيـد   حتى ظننت حياتى من اياديكا

(٣) اسرار البلاغة ; عبد القاهر الجرجانى ص : ١ .

فاليد فى المثال والبيت مجاز مرسل علاقته الآلية .

ونعم الناس بأيام محمد — وغطت أيامه الناس كرما — بالاسناد إلى الزمان الذى وقع فيه الفعل مبالغة فى جوده على سبيل المجاز العقلى .

وقد تسلك طريق الاستعارة التصريحية قائلا : سعيت إلى البحر لابتغى من فضله أو كما قال الشاعر المتنبى يصف حال رسول الروم داخلا على سيف الدولة :

واقبل يمشى فى البساط فما درى إلى البحر يسعى أم إلى البدر يرتقى

أو المكنية قائلا : فاض محمد على الناس بكرمه .

والأولى أوضح من الثانية من غير شك .

وقد تسلك طريق الكناية فتقول : أبواب محمد مفتوحة — ورائبه لا يمكث كثيرا فى جيبه . فترى أن المعنى قد يكون واحدا بينما تختلف وتتعدد التعابير ، ومن غير شك فانها تختلف فيما بينها من جهة إثبات الكرم لمحمد ، وارفعها بلاغة وأعلاها بيانا ما يأخذ منا مقدارا زائدا من الفكر وإعمال الذهن . ولذلك فمن البلاغة الا تتكلم بهذه العبارات السابقة عن كرم محمد لمن يفهم أسرارها ومن لا يفهمها ، بل تتروى فى تحديد حال المخاطب لتتحدث معه بأسلوب يتلاءم مع فهمه ويتفق مع عقله وفكره(٤) .

---

(٤) فترى من خلال ما سبق كيف تنوعت عبارات المتكلم واختلفت أساليبه بينما المعنى واحد وهو وصف كرم هذا الانسان ، وكان ذلك التنويع فى الأساليب لأن المقام يقتضيها . لذا يعد المتكلم بهذه العبارات صاحب بيان .

فلنعد إلى هـذه السبل التى سلكناها لنناقشها بشيء من التروى ، ولنبدأ بما له منها فى البيـان قدم راسخ ، وهو التشبيه الذى يعد اصلا من أصوله واساسا من اسسه .

ــ وواضح أن المتكلم البين لا ينطبق عليـه ذلك الوصف إلا إذا تمكن من تنويع الاساليب عن كل معنى يجول فى خاطره بما يتلاءم مع حال من يخاطبه . لذلك قالوا إن الالف واللام فى « المعنى » الواردة فى التعريف للجنس ، اى لكل المعـانى التى ترد على الذهن وليس لمعنى واحـــد .

● كما يفيد تقييد المعنى بكونه واحدا الإشعار بانه لو أورد معانى متعددة بعضها أوضح من الآخـر لا يكون ذلك من البيان كمن يقول : خالد كالريح فى السرعة ، وشاهدت حاتما اليوم فى الكلية ، فالعبارتان تختلفان وضوحا وخفاء ، لكنهما ليسـا لمعنى واحد ، وإنما لمعنيين مختلفين .

● كما نرى أن اختلاف الاساليب عن المعنى الواحد مقيد ومشروط بأن يكون بعضها أوضح من بعض ، ليفهم من ذلك انه لو تعـددت الأساليب للمعنى الواحد بدون أن تختلف فيما بينها وضوحا وخفـاء لا يكون ذلك من البيـان كقولك فى وصف شجاعة احمـد : احمـد كالأسد فى الشجاعة ، وكالليث فى الجـراة ، فقد اختلفا من حيث اللفظ إلا أن درجة الوضوح فيهما واحدة .

● وحيث تتمثل الاساليب المتنوعة للمعنى الواحد كما رأينـا فى التشبيه والمجـاز والكناية فإن بعض البلاغيين عرفوا البيـان بانه : علم يبحث فيه عن التشبيه والمجاز والكناية .

وفسر الخطيب القزوينى وجه كون الأساليب الثلاثة السابقة هى أساليب البيان وفنونه بأن اللفظ الذى يراد به لازم ما وضـع لـه إن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فهو مجاز ، وإلا فهو كناية ، وان المجاز منه الاستعارة ، وهي تبنى على التشبيه ، فتعين التعرض له : بغيـة الإيضاح ٣/٦ .

التشـــــبيه

قيمتــه البـــلاغية :

إنه فن عظيم من فنون البـــلاغة ــ واصل من اصول البيـــان ــ وسبيل من سبل السبق ، والإجادة وميدان للتنافس بين الشعراء والكتاب ــ فهو يدل على صفاء الذوق ، ورقة الحس ــ وتتمثل ثمرته ، وتتركز أهميته فى توضيح المعنويات ، وإظهار الخفيات ، وجعلها على مقربة من العقول والأفهـــام ، وتقريرها فى النفوس ــ فإذا ورد التشبيه فى أعقاب المعانى ، او برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صـــورها الأصلية إلى صورته ، كساها ابهـــة ، وكسبها منقبة ، ورفع من اقدارها ، وشب من نارها ــ وضاعف قواها فى تحـــريك النفوس لهـــا ، ودعا القلوب إليها واستثار لهـــا من اقاصى الأفئدة صـــبابة وكلفا ، وقسر الطبـــاع على ان تمطيها محبة وشغفا .

يتبين لنـــا ذلك جليا بالنظر إلى المعـــانى والموازنة بينهـــا مسلوكا بهـــا سبيل التشبيه والتمثيل وبينها غير مشبهة وممثله(٥) انظر إلى مـــا يقوله البحترى مادحا .

دان على ايدى العفـــاة وشـــــاسع
عن كل نـــد فى النـــدى وضريب(٦).

---

(٥) يقول الخطيب القزوينى عن تاثير التشبيه : اعلم انه مما اتفق العقلاء على شرف قدره وفخامة امره فى فن البلاغة ، وان تعقيب المعـــانى به لاسيما قسم التمثيل منه يضاعف قواها فى تحريك النفـــوس إلى المقصود بهـــا مدحا كانت او ذما او افتخارا او غير ذلك . بغيـــة الايضـــاح ٣/٨ .

(٦) المثيـــل والنظـــير .

كالبدر افرط فى العلو وضوءه

للعصبة السارين جد قريب

تراك فى غاية من الدهشة والعجب عقب قراءتك البيت الأول ، وتأخذ فى التساؤل ! كيف يكون الشىء قريبا وبعيدا فى آن واحد ، وهو ما يقصده البحترى من وصف ممدوحه بقرب نفعه ودنو كرمه من السائلين مع علو مكانته وارتفاع منزلته فى البيت الأول ، فإذا انتهيت إلى البيت الثانى الذى دلل به البحترى وبرهن على حكمه السابق بصورة من الطبيعة تشهدها بعينيك ممثلة بالبدر الذى يضىء الطريق للسائرين ، بينما هو بعيد لا يدرك ، زال ما بك من عجب ، وولت دهشتك واستغرابك ، وعاد مستقرا فى خاطرك ومتمكنا من وجدانك .

كذلك تدرك بعد الفارق بين قولك فى وصف من يتعب نفسه ، ويضنى فكره فى حفظ الكتب وإستظهار الدروس بدون أن يفيد مما يحفظه — غير سالك بكلامك سبيل التشبيه قائلا : فلان يكد نفسه فى قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئا وقول الحق جل وعلا فى وصف احبار اليهود الذين قرأوا التوراة وحفظوها ولم يعملوا بما فيها ولا انتفعوا بآياتها وانهم فى ذلك كالحمار الذى يحمل كتبا هى اوعية العلوم ومستودع ثمار العقول وكل حظه منها الشقاء والعناء والتعب : ((**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين**))(٧) .

وقول الشاعر فى هجاء قوم يستكثرون من حفظ الاشعار ثم لا يتمكنون من التمييز بين الجيد منها والردىء :

---

(٧) سورة الجمعة : ٥ .

زوامل للأشــــعار لا عــلم عنــدهم

يجيـــدها إلا كعـلم الأباعـــــر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غـــدا

باوســـاقه او راح ما فى الغرائر(٨)

كذلك نكاد نشك ولا نصدق أبا تمـام فيما يقرره من تولد الخير من الشر ، وترتب النفع على محاولة الاضرار ، وذلك فى الوشايات التى تكون على السنة الحاسدين فتـكون سبيلا لنشر المحاسد ، وإذاعة الفضائل ، ولكنه بعـد أن دلل على صدق ذلك وبرهن على ثبوته بمثال من الطبيعة وصورة نراها باعيننا ، وهى رائحة العود تنشرها النار وتذيعها مع ما فى النار من الإحراق ، زاد المعنى وضوحا وتمكنا فى اعماقنا ، وذلك فى قـوله :

وإذا اراد الله نشر فضـــــيلة

طويت اتاح لهـــا لســان حســود

لولا اشــتعال النـــار فيما جـاورت

مـــا كان يعـرف طيب عـرف العود

كذلك نلمح البون العميق بين من يصف ذلك الذى لا يتمكن من فهم الكلام لفساد فى ذوقه بقوله : إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعـنى بغير صـورته ، ويرى من الصواب خطأ ، وبين قول المتنبى فى ذلك على سبيل التشبيه الضمنى :

ومن يــك ذا فم مر مريـــض

يجــــد مـرا به المـاء الزلالا

---

(٨) الزوامل : جمع زاملة : وهي التي يحمل عليها من الابل وغيـرها ؛ والاباعر : جمع بعير .

فترى المعنى فى قول المتنبى بدون شك أكثر وضوحا وتأكدا ، لأنه اظهره وصوره بصورة من الطبيعة محسوسة يدركها كل من يذوق ويميز بين الأطعمة والمشروبات .

كذلك نجد المعنى اقل وضوحا واستقرارا فى أذهاننا فى قولنا : إن الذى يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره ، مع الاقتصار على ذلك ، وبينه متبوعا بقول النبى ﷺ فى ذلك على سبيل التمثيل والتصوير : « مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذى يضىء للناس ويحرق نفسه ، أو مثل الفتيلة التى تضىء للناس وتحرق نفسها » .

وبين قولنا فى الحكم على الدنيا بالزوال والفناء : « الدنيا لا تدوم ولا تبقى » مع الاقتصار على ذلك ، وبينه متبوعا بقول النبى ﷺ : « من فى الدنيا ضيف ، وما فى يده عارية ، والضيف مرتحل والعارية مؤداة » .

أو بقول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولابد يوما ان ترد الودائع

وقول آخر :

إنما نعمة قوم متعة
وحياة المرء ثوب مستعار

فتدرك من الموازنة السابقة بين المعانى مقطوعة عن التمثيل وبينها متبوعة بالتمثيل عليها مدى ما للتمثيل من وقع على القلوب وتأثير على النفوس .

دواعى هذا التأثير :

أما دواعى هذا التأثير وأسبابه فإنها تتمثل فى :

١ — إيضاح الخفيات ، وتبيين المبهمات . بجعل العقلى حسيا :

فذلك هو السبب الأول من أسباب ما للتشبيه من وقع وتأثير على النفوس ، إذ يوفر لهـا الأنس بنقلها من الخفى إلى الجلى ، ويجيئها بالصريح بعد المكنى ، وينقلها من العقل إلى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، ومن غير شك فإن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا : « ليس الخبر كالمعاينة ، ولا الظن كاليقين » .

ومن أوضح ما يدل على أن التمثيل يزيد النفس أنسا بالمعنى واطمئنانا له أنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التى تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لا تدع فى النفس منزعا نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول : يوم كأطول ما يتوهم ، وكأنه لا آخر له وما شاكل ذلك من نحو قوله :

فى ليل صول تناهى العرض والطول
كأنما ليله بالحشر موصول

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله :

ويوم كظل الرمح قصر طوله
دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

وإن كان التعبير الأول أكثر مبالغة فى وصف اليوم من هذا ، لأن ظل الرمح على كل حال متناه تدرك العين نهايته ، لكن التمثيل جعل الثانى أكثر وضوحا ودلالة على الطول(٩) .

---

(٩) ويقول الخطيب القزوينى عن هذا السبب من أسباب تأثير التشبيه

٢ — الجمع بين المتناقضات :

أما السبب الثانى من أسباب وقع التمثيل وتأثيره على النفوس ، فهو ما يمتاز به من الجمع بين المتنافرات ، والتقريب بين المتباعدات ، والتأليف بين المختلفات ، نتيجة اطلاق العنان للخيال الذى يؤلف من الصور المتخيلة والمتوهمة ما لا مكان لها فى الواقع ولا وجود لها فى الطبيعة ، ومما يبهج النفس أن ترى الشيئين مؤتلفين ، وترى الصورة الواحدة فى السماء والأرض ، وفى خلقة الإنسان وخلال الروض ، ولذا كان تشبيه البنفسج فى قول ابن المعتز :

ولاز ورديه تزهو بزرقتها
بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها
أوائل النار فى أطراف كبريت

أعجب وأبدع ، وأحق بالولوع وأجدر من تشبيه النرجس بمداهن در حشوهن عقيق فى قوله :

كأن عيون الرجس الغض حولنا
مداهن در حشوهن عقيق

ولذلك أسباب منها : ما يحصل للنفس من الأنس بإخراجها من خفى إلى جلى ، كالانتقال مما يحصل لها بالفكرة إلى ما يعلم بالفطرة ، أو بإخراجها مما لم تألفه إلى ما ألفته .... ومن الدليل على أن للإحساس من التحريك للنفس وتمكين المعنى ما ليس لغيره أنك إذا كنت أنت وصاحب لك يسعى فى أمر على طرف نهر ، وأنت تريد أن تقرر له أنه لا يحصل من سعيه على طائل فأدخلت يدك فى الماء ثم قلت له : انظر هل حصل فى كفى من الماء شىء ؟ فكذلك أنت فى أمرك — كان لذلك ضرب من التأثير فى النفس وتمكين المعنى فى القلب زائد على القول المجرد . بغية الإيضاح ٣ من ١٠ — ١٢ .

على الرغم من ان المشبه به فى الاول كثير الوجـود ، وفى الثانى نادر الوجود ، ولكن تجلت براعة الاول فى جمعه بين المختلفين ، وتاليفـه بين المتباعدين ، حيث ارانا صـورة لنبـات غض يرف واوراق رطبـة ترى المـاء منها يشف بلهيب نار مستول عليـه اليبس وباد فيـه الكلف ، ومبنى الطبـاع وموضوع الجبلة على ان الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منـه وخـرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به اكثر وكان بالشغف منها اجـدر .

فالتاليف بين المختلفين كما ترى من ابين الاسـباب فى هـذه الآثار التى يتركها التشبيه على النفوس ، فهو يأتى بالحيـاة والموت مجموعين ، والمـاء والنـار مجتمعين ، كما يقـال فى الممدوح : هو حيـاة لأوليائه ، وموت لاعدائه ، ويجعل الشىء من جهة ماء ومن اخـرى نارا كما قال :

انا نار فى مرتقى نظـر الحـا

سد ماء جـار مـع الإخـوان

ويجعل الشىء اسود ابيض فى حـال كنحو قول الشاعر :

له منظر فى العين أبيـض ناصـع

ولكنه فى القـلب اسود اسفع(١٠)

ويجعل المعدم وجودا والوجود عدما ، والميت حيـا والحى ميتا ، اى جعلهم الرجـل إذا بقى له ذكر جميل وثنـاء حسن بعـد موته كأنه حى لم يمت ، وإذا لم تكن له فائـدة ولا خير فيـه كأنه غير موجود .

ومن تأثير التشبيه لذلك السبب وهو الجمع بين المتناقضات أنـه يأتيك من الشىء الواحد بأشياء عدة ، ويشتق من الاصل الواحد اغصانا

---

(١٠) الاسفع : الأسود المشرب بحمرة .

فى كل ثمر على حـدة ، فالزند بايرائه(١١) يعطيك شـبه الجـواد والذكى الفطن والنجح فى الامور والظفر بالمـراد ، وباصـلاده شـبه البخيل الذى لا يعطيك شـيئا والبليد الذى لا يكون له خاطـر ينتج فائدة ويخـرج معنى ، وشبه من يخيب سعيه ، ويعطيك من القمر الشـهرة فى الرجل والنباهة والعـز والرفعة والكمال عن النقصـان والنقصـان بعد الكمال ، كقول الشاعر :

المـرء مثل هـلال حـين تبصـره
يبدو ضـئيلا ضـعيفا ثـم يتسـق
يزداد حـتى إذا مـا تـم اعقبـه
كـر الجـديدين نقصا ثـم يتمحق

كما يتفرع من حالتى تمامه ونقصانه فروع لطيفـة ، فمن ذلك قول أبى بكر الخوارزمى :

اراك إذا ايسرت خيمـت عنـدنا
مقيمـا وإن اعسرت زرت لمـاما(١٢)
فما انت إلا البـدر إن قـل ضوءه
اغـب وإن زاد الضـياء اقاما

فالمعنى لطيف ، وإن كانت العبـارة لم تساعده على الوجه الذى يجب ، فإن الإغبـاب ان يتخلل وقتى الحضور وقت يخلو منـه ، وإنمـا يصلح لأن يراد ان القمر إذا نقص نوره لم يوال الطلوع كل ليـلة بـل يظهر فى بعض الليالى دون بعض ، وليس الأمر كذلك لإنـه على نقصانه يظهر كل ليـلة حتى يكون السرار .

---

(١١) يقال : ورى الزند إذا اخرج ناره ، واصلد إذا لم تخرج منه النار .
(١٢) لمـاما : أى غبـا .

٣ ـ احتياجه إلى فكر وتدبر :

لما يفعله التشبيه من تكوين صور ، وتأليف مناظر من وحى الخيال ، وجمعه بين المتناقضات والمختلفات ، وغير ذلك مما مر به ، فإنه يتوقف على مزيد من التأمل ، ويحتاج إلى وقت من التدبر مما يجعله يستقر فى الذهن ويثبت فى الخاطر ، ومن المركوز فى الطبع ان الشىء إذا نيل بعد الطلب له او الإشتياق إليه ومعاناة الحنين نحوه ، كان نيله احلى ، وبالمزة اولى فكان موقعه من النفس اجل والطف ، وكانت به أضن وأشغف ، ولذلك ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد الماء على الظمأ كما قال :

وهن ينبذن من قول يصبن به

مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

ولا يعترض على ما يتوقف عليه استجلاء روعة التشبيه من تدبر وتأمل بما يحتاجه التعقيد من فكر وتدبر ، وبمخالفة ذلك لما قاله الناس :

« من أن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك اسبق من لفظه إلى سمعك » ، لأن بواعث الفكر فى التشبيه غيرها فى التعقيد ، فالفكر فى التشبيه منشؤه لطف المعانى ودقتها وتنسق الألفاظ وإحكام ترتيبها ، فهو فكر محمود ، لكنه فى التعقيد ينشأ عن إخفاء المعانى والتواء الأساليب ، فكان مذموما لا يأتى بفائدة ولا ينتهى بثمرة ، على نحو ما مريك فى ذم التعقيد اللفظى فى مثل قول الشاعر :

وما مثله فى الناس إلا مملكا

أبو امه حى ابوه يقاربه

والمعنوى فى مثل قوله :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا

وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

وقد ارادوا بقولهم : « ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك » أن يجتهد المتكلم فى ترتيب اللفظ وتهذيبه وصيانته من كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الإبانة ، ولم يريدوا أن خير الكلام ما كان غفلا مثل ما يتراجعه الصبيان ، ويتكلم به العامة فى السوق(١٣) .

تعريف التشبيه ـــ أركانه :

وقد عرف البلاغيون التشبيه بأنه : الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى مشترك بينهما بأداة من أدواته الملفوظة أو المقدرة لغرض يقصده المتكلم وتتمثل أركانه فى : المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجه الشبه .

أما المشبه والمشبه به : فيسميان طرفى التشبيه ، ولابد فى كل تشبيه اصطلاحى من وجودهما على وجه ينبىء عن التشبيه ، وقد يحذف المشبه للعلم به ، ولكنه ملحوظ فى التقدير كالملفوظ ، فاذا سئلت ، كيف على ؟ فقلت : كالصاروخ انطلاقا ، فإن التقدير : هو كالصاروخ انطلاقا : فترى المشبه غائبا حاضرا(١٤) .

(١٣) انظر : أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى من : ٨٤ ـــ ١٢٥ ط محمد رشيد رضا .

(١٤) لطرفى التشبيه : المشبه والمشبه به تقسيمات من حيث الحسية والعقلية والإفراد والتركيب .

فمن حيث الحسية والعقلية : يكونان حسيين كما فى تشبيه الخد

بالورد والجلد الناعم بالحرير ، أو عقليين كما فى تشبيه العـــلم بالحياة ، أو المشبه عقلى والمشبه به حسى كما فى تشبيه المـوت بالسبع ، أو العكس كما فى تشبيه العطر بخلق الرجـل الكريم ، ويسمى هذا النوع الأخير معكوسا أو مقلوبا ، ويصار إليـه عنـد قصد المبالغة فى ظهور الصفة فى المشبه لدرجة أنه يجعل أصـلا يقاس عليـه ويشبه به .

ومن حيث الإفراد والتركيب : يكونان مفردين كتشبيه الخد بالورد ، وعليه قوله تعالى : ((**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**)) ســـورة البقرة : ١٨٧ . وقد علق الزمخشرى عليها بقوله : لمـا كان الرجل والمرأة يعتنقان ويشتمل كل واحـد منهما على صـاحبه فى عناقه شبه باللباس للآخـر ، لأنه يصونه من الوقوع فى فضيحة الفاحشة كاللباس الساتر للعـورة .

أو مقيــدين : أى يقيد كل منهما بقيد يتوقف على اعتباره تمـام التشبيه كقول الشاعر :

إنى وتزيينى بمدحى معشرا   كمعلق درا على خنزير

فالمشبه هو حال المتكلم فى مدحه أناســا ليسوا أهلا لمدحه لهـم والمشبه به من يضع الدر على أعناق الخنازير ، ووجه الشبه الذى يجتمع فيـه الطرفان هو : وضع الزينة حيث لا يظهر لهـا أثـر لأنهـا جاءت فى غير موضعها .

أو مركبين كقول بشــار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فكل من المشبه والمشبه به هيئة مؤلفـة من أمور يتعلق بعضها ببعض ولذا كان وجه الشبه : الهيئة الحاصـلة من وجود أشـياء

. . . .

مشرقة بيض تتحرك بدون نظام فى جوانب شىء مظلم أسود .

أو متعددين : وللتعدد وجوه ، فقد يكون للطرفين معا ، وقد يكون لواحد منهما ، فإذا تعدد كل من المشبه والمشبه به وجاءت المشبهات فى ناحية والمشبهات بها فى الناحية الأخرى سمى ذلك تشبيها ملفوفا كالبيت المشهور لامرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

بتشبيه الرطب من قلوب الطير بالعناب وهو ثمر طرى ، واليابس بالحشف البالى وهو ما جف من الثمر وكان رديئا ، وقد جاءت المشبهات فى ناحية والمشبهات بها فى الناحية الأخرى كما رأيت . وإن قرن كل مشبه بالمشبه به سمى ذلك مفروقا كقول الشاعر :

النشر مسك والوجوه دنا

نير وأطراف الأكف عنم

بتشبيه النشر وهو الرائحة الطيبة بالمسك ، والوجوه فى استدارتها وإشراقها بالدنانير ، والأنامل بالعنم وهو نوع من الشجر له ثمر أحمر يشبه بها البنان المخضوب .

وقد يكون التعدد لأحد الطرفين دون الآخر ، فإذا تعدد المشبه دون المشبه به سمى تشبيه التسوية كقول الشاعر :

صدغ الحبيب وحالى كلاهما كالليالى

وثغره فى صفاء وأدمعى كاللآلى

واما وجه الشبه : فهو الصفة التى قصـــد إشـــراك الطرفين فيها، وينبغى ان تكون فى المشبه بـــه اقوى واظهر منها فى المشبه : كتشبيه الخـــد بالورد فى الحمرة التى تظهر فى المشبه به بوضـــوح ، والوجـــه الحسن بالبـــدر فى الاشـــراق الذى يتمثل فى البدر على اكمل صـــورة، ولذلك كان التشبيه ضعيفا فى قول البحترى :

على بـــاب قنســـرين والليـــل لاطخ

جوانبـــه من ظلمـــة بمـــــداد

وإذا تعـــدد المشبه به دون المشبه يسـمى تشبيه الجـمع كقول البحترى :

كانما يبســم عن لؤلؤ منضــد او برد او اقــاح

فالمشبه متدر وهو الثغر والمشبه به امور هى : اللؤلؤ المنضـــد اى المنسق ، والبرد (حبات الغمام) والأقاح مفرده : اقحوان وهو ورد له نور أوراقه فى شكلها أشبه شىء بالأسنان .

((والفرق بين المتعدد والمركب)) :

انه يمكن التصرف فى المتعدد بالحذف او التقديم والتاخير ولا يكاد يتغير المعنى ، بينما لا يحسن شىء من ذلك فى المركب فيمكن أن نقول فى بيت امـرىء القيس : اليابس من قلـــوب الطـــير كالحشـــف البالى ، والرطب منها كالعناب ، ولا يتاثر المعـــنى بهذا التغير فى النسق ، ولا بمقابلة كل عنصر بما يشبهه .

بينما لا يصح ان نقول فى بيت بشار : كان النقع ليـــل ، وكان السيوف كواكب ، حيث يتغير المعنى وتضطرب الصورة ، ولذلك كان ما قال بشار اكثر دقة فى نظر النقاد من قول أمرىء القيس على الرغم من أن كلا منهما يشبه شيئين بشيئين فى بيت واحد .

فقد الحق الليل بالمداد فى السواد ، ورب مداد فاقد اللون ، لذا كان الليل بالسواد وشدته احق واحرى .

وكان ابن الرومى اكثر توفيقا منه فى قوله :

حبر ابى حفص لعاب الليل

يسيل الاخوان اى سيل

فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل(١٥) .

ولما كان وجه الشبه هو المعنى الذى ينبغى ان يشترك فيه الطرفان ، المشبه والمشبه به ، فإن التشبيه تضعف قوته ، ويذهب حسنه وجماله ، إذا لم تتحقق تلك المشاركة ، لذلك فإن جعل الوجه فى قولهم : النحو فى الكلام كالملح فى الطعام — كون القليل مصلحا والكثير مفسدا — غير مقبول ، لعدم تحقق المماثلة بين الطرفين على أتم وجه ، فإن القلة والكثرة انما يتصور تحققهما فى الملح دون النحو ، وذلك بأن يجعل منه فى الطعام القدر المصلح او اكثر منه — وليس النحو كذلك — فانه إذا كان من حكمه رفع الفاعل ونصب المفعول مثلا ، فإن وجد ذلك فى الكلام فقد حصل النحو فيه وانتفى الفساد عنه ، وصار منتفعا به فى فهم المراد منه ، وإلا لم يحصل وكان فاسدا لا ينتفع به — فالوجه فيه كون الاستعمال مصلحا والإهمال مفسدا لاشتراكهما فى ذلك.

ويتصل بهذا ما حكى ان ابن شرف القيروانى انشد ابن رشيق قوله :

غيرى جنى وانا المعاقب فيكم

فكأننى سبابه المتندم (١٦)

---

(١٥) أنظر : بغية الايضاح : ٣/٤٠ ، ٤١ .
(١٦) هي الأصبع المعروف التي يعضها الشخص عند اظهار الندم .

وقال له : هل سمعت هذا المعنى ؟ فقال ابن رشيق : سمعته واخذته انت وافسدته ، اما الاخذ فمن النابغة الذبيانى حيث يقول :

حلفت فلم اترك لنفسك ريبة

وهل يأثمن ذو إمة وهو طائع (١٧)

لكلفتنى ذنب امرىء وتركته

كذى العر يكوى غيره وهو رائع

واما الإفساد فلان سبابة المتندم أول شيء يتألم منه فلا يكون المعاقب غير الجانى ، وهذا بخلاف بيت النابغة ، فإن المكوى من الإبل يألم وما به عر البتة ، وصاحب العر لا يألم جملة(١٨) فوجه الشبه فيهما ايقاع العقاب على غير الجانى وترك معاقبة الجانى ، وبالنظر فى شرطه وهو تحققه فى الطرفين ، يتبين لنا ان كلام النابغة يتمثل فيه ذلك التحقق ، بخلاف ما قاله ابن شرف ، فإن اشتراك الطرفين فى وجه الشبه غير دقيق على الرغم من اخذه المعنى من النابغة ، وبذلك كان ابن رشيق على صواب فى نقده له .

وقد يحذف وجه الشبه للعلم به كقولنا : محمد كالأسد او تحذف الأداة للعلم بها كقولنا : محمد اسد فى الشجاعة ، إذ من المعلوم انه يراد به الوصف بالشجاعة غير أن ذلك النوع الذى يحذف منه وجه الشبه او الأداة اقوى ، واكثر اثباتا لشجاعة محمد مما يذكر الوجه فيه او الأداة — لما يتطلبه حذف الوجه او الأداة من بذل الفكر فى استنباطه والوقوف عليه مع وجازة التعبير ، وابلغ منه ما يحذف فيه الوجه والأداة معا كقولنا : محمد اسد ، إذ يخيل الينا ان المشبه عين

---

(١٧) الأمة : الدين او النعمة اسديت إليه — العر : الجرب .
(١٨) أنظر : بغية الإيضاح ٢٢/٤ .

المشبه به مما يجعلنا نبذل مجهودا فكريا زائدا فى تصور هـذا المعنى ، مع الايجاز فى التعبير ، ولذلك يطلق علماء البلاغة على مثل هـذه الصورة من كل تشبيه حذف منه وجه الشـبه والأداة تشبيها بليغا ، إذا وقـع المشبه به خبرا عن المشبه كقوله تعالى : ((**هن لباس لكـم وانتم لباس لهن**))(١٩) وقوله : ((**نساؤكم حرث لكـم**))(٢٠) وقوله : ((**إنما المؤمنون اخـوة**))(٢١) ، وقول الشـاعر :

عزماتهـم قضـب ، وفيـض اكفهـم

سحب ، وبيـض وجوههـم اقمـــار

او فى حكم الخبر كخبر كان فى قول المتنبى :

وإذا اهـتز للنـدى كان بحـــرا

وإذا اهـتز للـوغى كان نصــــلا

وإذا الارض اظلمت كان شمســـا

وإذا الارض امحلـت كان وبـــلا

والمفعول الثانى لجعل فى قول الله تعالى : ((**وجعلنا الليل لباسا**))(٢٢) .

او كان المشبه به مضافا إلى المشبه كما فى قول الشاعر :

والريح تعبث بالغصـون وقـد جرى

ذهب الأصـيل على لجـين المـــاء(٢٣)

---

(١٩) سـورة البقرة : ١٨٧ .
(٢٠) سـورة البقرة : ٢٢٣ .
(٢١) سـورة الحجرات : ١٠ .
(٢٢) سـورة النبـا : ١١ .
(٢٣) بتشبيه الجو وقت الأصيل بالذهب ، والمـاء فى صفائه بالفضة ، فاضيف المشبه به فى كل منهما إلى المشبه .

او كان مصدرا مبينا لنوعه كقول الله عز وجل : « **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** »(٢٤) .

فالتشبيه فيما مضى من كل ما حذف منه الوجه والأداة يستغرق منا وقتا ويأخذ قدراً فى الوقوف عليه ، الأمر الذى يكتب له الثبات والاستقرار فى نفوسنا ، ولذلك لقبه بعض البلاغيين بالتشبيه البليغ(٢٥).

واما اداة التشبيه : فهي كل ما دل على المشابهة من حرف كالكاف وكأن ، أو فعل نحو : شابه وماثل ، وحاكى ، وضارع ، ويشابه ، ويماثل ، ويحاكى ، ويضارع ، أو اسم نحو : شبه ومثل ، ومماثل ، ومحاك ، ومضارع .

وعلى الرغم من تعدد أدوات التشبيه وتنوعها فإنها تختلف فيما بينها من جهة المعنى ، ويتفاوت التشبيه بسببها وضوحا وخفاء ، مما يتطلب من الناظم او الناثر ان يلتزم الروية والأناة فى صوغ تشبيهاته حتى تجىء معبرة عما يريد وصادقة فى تصوير أحاسيسه ورسم مشاعره . فقولنا : كان محمدا الاسد أدل على وصفه بالشجاعة من قولنا : محمد كالأسد — إذ تفيد العبارة الأولى زيادة فى معنى التشبيه لم تفدها الثانية ، حيث تجعله من فرط شجاعته وقسوة قلبه ، وأنه لا يروعه شىء بحيث لا يتميز عن الاسد ولا يقصر عنه حتى يتوهم انه اسد فى صورة آدمى — ونشأت تلك الزيادة فى المعنى من اختلاف اداة التشبيه(٢٦) .

---

(٢٤) سورة النمل : ٨٨ .

(٢٥) من المبالغة بمعنى الزيادة فى المعنى ، وليس من البلاغة بمعنى المطابقة لمقتضى الحال . لأن كل تشبيه يصادف موقعه يكون بليغا فى موضعه .

(٢٦) انظر : دلائل الاعجاز : ص ١٧٧ ، ١٧٨ ط المراغى .

والأصل فى الكاف ونحوها من كل ما يدخل على المفرد كلفظ مشابه ومماثل أن يليها المشبه به ، وقد يليهـا مفرد لا يتأتى التشبيه بـه ، وذلك إذا كان المشبه به مركبا كقول الله تعالى : « **واضرب لهـم مثل الحيـاة الدنيا كماء انزلناه من السـماء فاختلط بـه نبات الأرض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا** »(٢٧) إذ ليس المـراد تشبيه حال الدنيا بالمـاء ولا بمفرد آخـر يتحمل لتقديره ، بل المـراد تشبيه حالهـا فى نضارتها وبهجتها وما يعقبها من الهـلاك والفناء بحال النبـات يكون اخضر وارقـا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن ، وكقوله تعالى فى وصف احبار اليهود وقد قرأوا التوراة وحفظوها ولم يعملوا بما فيها ولا أنتفعوا بآياتها ، وانهم فى ذلك كالحمار الـذى يحمل كتبـا ولا حـظ لـه منها إلا التعب والمشقة : « **مثل الـذين حملوا التوراة ثم لم يحملوهـا كمثل الحمار يحمل أسفارا** »(٢٨) فليس المشبه به الحمار وحده ، بل الحمـار وفوقـه الحمل وأن المحمول شىء مخصوص هى الأسفار التى هى اوعية العلوم ، وأن الحمار جاهل بما فيها فمثل ذلك قول الشاعر :

لقـد اطمعتنى بالوصـال تبسـما
وبعـد رجـائى اعرضـت وتولـت
كما ابرقت قـوما عطاشـا غمامـة
فلمـا رجوهـا اقشـعت وتجلـت

فالوجه الـذى يجمع الطرفين : المشبه وهى محبوبته التى تغريـه وتطمعه بوصالها ثم تتركه فى يأس وحيرة بإعراضها وتوليها والمشبه به: وهى الغمامة التى تظهر لقوم عطاش ثم تختفى هو : ابتداء مطمع متصل

(٢٧) سـورة الكهف : ٤٥ .
(٢٨) سـورة الجمعة : ٥ .

بانتهاء مؤيس ، وذلك لا يحققه ما يلى الكاف فقط بل ما يتصل به من زوال الغمامة وذهابها بعد الرجاء فى بقائها ونزول المطر منها(٢٩) .

الغرض من التشبيه :

---

(٢٩) قوة التشبيه وضعفه من حيث توافر أركانه كلها أو بعضها رأينا من خلال الكلام الماضى أن التشبيه تتفاوت صوره من حيث اشتماله على الأركان جميعها أو بعضها ضعفا وقوة ، حتى إن التشبيه الذى لا يذكر فيه إلا لطرفان : المشبه والمشبه به يعد من أقوى صوره مما حدا ببعض العلماء إلى أن لقبوه بالتشبيه البليغ وننقل فيما يلى حديث الخطيب القزوينى فى خاتمة كلامه عن التشبيه عن صور التشبيه ومراتبه قوة وضعفا من حيث توافر أركانه أو بعضها .

فيقول الخطيب تحت عنوان : مراتب التشبيه

قد سبق أن أركان التشبيه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، وأداة التشبيه ، ووجهه ، فالحاصل من مراتب التشبيه فى القوة والضعف فى المبالغة باعتبار ذكر أركانه كلها أو بعضها ثمان :

إحداها : ذكر الأربعة ، كقولك : زيد كالأسد فى الشجاعة — ولا قوة لهذه المرتبة ، وثانيتها : ترك المشبه ، كقولك : كالأسد فى الشجاعة — أى زيد ، وهى كالأولى فى عدم القوة ، وثالثتها : ترك كلمة التشبيه كقولك : زيد أسد فى الشجاعة ، وفيها نوع قوة ، ورابعتها : ترك المشبه وكلمة التشبيه كقولك : أسد فى الشجاعة — أى زيد ، وهى كالثالثة فى القوة ، وخامستها : ترك وجه الشبه ، كقولك : زيد كالأسد ، وفيها نوع قوة لعموم وجه الشبه من حيث الظاهر ، وسادستها : ترك المشبه ووجه

=

ومعلوم ان اسلوب التشبيه كصورة من صور البيان يكسب الكلام عديدا من الأسرار وكثيرا من الآثار البلاغية ، وهى آثار يشترك فى تحقيقها صور البيان الأخرى مع اختلاف هذه الأسرار قوة وضعفا من فن بيانى لفن بيانى آخر ، غير ان له اغراضا ومقاصد يستخدمه المتكلمون والكاتبون بغية الوصول إليها او بعضها ، وهذه الأغراض منها ما يعود إلى المشبه ، ومنها ما يعود إلى المشبه به .

فأغراض التشبيه التى تعود على المشبه وذلك فى الأغلب تتمثل فى:

ا — بيان ان وجود المشبه ممكن ، وذلك فى كل امر غريب يمكن ان يخالف فيه ويدعى امتناعه ، كما فى قول ابى الطيب :

فإن تفق الأنام وانت منهم

فإن المسك بعض دم الغزال

فقد بالغ فى مدحه لكافور بانه لتفوقه على جميع أهل عصره فى الفضائل اضحى كانه من جنس آخر ، ولما كانت هذه دعوى غير معقولة حيث يستحيل أن يخرج الواحد من جنسه إلى جنس آخر فإنه قربها من الإمكان وازال عنها صفة البعد بما ذكره فى الشطر الثانى من هذا التشبيه الضمنى الذى يعد دليلا على ما ذكره فى الشطر الأول ، وهو أن المسك بعض من دم الغزال لكنه يعد كأنه جنس آخر لما فيه من الأوصاف الشريفة ، فكان ذلك دليلا على أن لما مدح به الشاعر صاحبه أصلا فى الوجود على الجملة .

=

الشبه كقولك : كالأسد ، اى زيد ، وهى كالخامسة ، وسابعتها : ترك كلمة التشبيه ووجهه ، كقولك : زيد اسد ، وهى أقوى الجميع ، وثامنتها : إفراد المشبه به بالذكر ، كقولك : أسد ، اى زيد ، وهي كالسابعة .

٢ ـ بيان حال المشبه ، كما فى تشبيه ثوب بآخر فى السواد إذا علم لون المشبه به دون المشبه .

٣ ـ بيان مقدار حاله فى القوة والضعف ، والزيادة والنقصان كقول الشاعر :

فاصبحت من ليلى الغداة كقابض
على الماء خانته فروج الأصابع

اى لم احظ منها بقليل او كثير كحال من يقبض على الماء .

٤ ـ تقرير حاله فى نفس السامع كتشبيه من يجهد نفسه فى امر ما بدون أن يجنى اى فائدة بمن يرقم على الماء .

٥ ـ تزيين المشبه للترغيب فيه ، كتشبيه وجه اسود بمقلة الظبى ، او تشويهه للتنفير منه ، كتشبيه وجه مجدور بسلحة جامدة قد نقرتها الديكة .

٦ ـ استطراف المشبه ، كتشبيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب ، فصورة المشبه به خيالية لا وجود لها على هذا النحو فى الواقع ، وذلك سر طرافتها ، ومن ذلك قول الشاعر فى تشبيه زهر البنفسج :

ولا زوردية تزهو بزرقتها
بين الرياض على حمر اليواقيت
كانها فوق قامات ضعفن بها
اوائل النار فى اطراف كبريت

فصورة المشبه به وهى : اوائل النار فى اطرف كبريت من الصور التى توجد بكثرة ويراها الناس فى كل وقت ، لكن يندر حضورها إلى

الذهن عند حضور المشبه لبعد المسافة بينهما ، حيث إن المشبه من أودية النبات والمشبه به من واد آخر ، وذلك سر طرافة التشبيه وروعته، ولذلك علق (عبد القاهر) عليه بقوله : « أراك شبهاً لنبات غض يرف وأوراق رطبة من لهب نار فى جسم مستول عليه اليبس ، ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على أن الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان الشغف به أجدر ».

وهذه الوجوه تقتضى أن يكون وجه الشبه فى المشبه به أتم وهو به أشهر ، ولهذا ضعف قول البحترى :

على باب قنسرين والليل لاطخ

جوانبه من ظلمة بمداد

(قنسرين : مكان بالشام قرب حلب) فقد شبه الظلام بالمداد والأحرى أن يكون العكس لأن الظلمة أصل فى السواد ، ورب مداد فاقد اللون ، والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى ، ولهذا قال ابن الرومى :

حبر أبى حفص لعاب الليل

يسيل للإخوان أى سيل

فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل .

ونلاحظ أن هذه الوجوه بعضها أو كلها تلتقى أو لا تكاد تخرج عن الوجه الأول من أوجه أسباب تأثير التشبيه على النفس وهو : إلحاقه الخفى بالجلى والعقلى بالحسى .

أما ما يعود على المشبه به من أغراض فغالبا ما يكون لإيهام أن المشبه به أتم من المشبه فى وجه الشبه ، وذلك فى التشبيه المقلوب، كقول محمد بن وهيب :

وبـــدا الصـــــباح كـــان غرتـــــــه

وجــه الخليفـــة حـــين يمتـــــدح

فيقصد إيهام أن وجه الخليفة اتم من الصباح فى الوضوح والضياء،
ومنه قوله تعالى حكاية عن مستحلى الربا : « **إنما البيـــع مثل الربـــا** »
فمقتضى الظاهر ان يقال : إنما الربـــا مثل البيع — إذ الكلام فى الربـــا
لا فى البيع ، فخالفوا لجعلهم الربا فى الحل اقـــوى حـــالا من البيـــع
وأعرف بـــه .

وقد يكون الغرض العائد إلى المشبه به بيان الاهتمام به كتشـــبيه
الجائع وجها كالبدر فى الاشراق والاستدارة بالرغيف إظهـــارا للاهتمـــام
بشأن الرغيف لا غير ، وهذا يسمى إظهار المطلوب .

٣٨/٣ — ٤٨

* * *

التشـــبيه والتمثيـــل

كل ما كان وجه الشبه فيه أمـــرا بينا بنفســـه لا يتوقف على تأول في تحصيله فهو تشبيه عند عبد القاهر مفردا كان أو مركبـــا ، من ذلك تشبيه الشيء المستدير بالكرة في وجه وبالحلقة في وجه آخـــر ، والتشبيه من جهة اللون كتشبيه الخد بالورد والوجه بالنهار ومن جهة الصورة واللون كتشبيه الثريا بعنقود الكرم المنثور ، والتشبيه من جهة الهيئة كتشـــبيه القامة بالرمح ، والقد اللطيف بالغصن ، والتشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة ، والأخـــلاق كلها تدخل في الغريزة نحو السخاء والكرم واللؤم ، فالشبه في هذا كله بين لا يجري فيه التأول، ولا يفتقر إليه في تحصيله ، وأي تأول يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل(٣٠) .

التمثيـــل :

وما كان وجه الشبه فيه على خلاف ما ســـبق لا يدرك إلا بالتأول فيخصه (عبد القاهر) بالتمثيل ، وهو يتفاوت عنده في احتياجه إلى التأمل والتأول ، فمنه ما يحتـــاج إلى قـــدر يســـير من التأول حتى يكاد يلتحق بالتشبيه كقولهم :

حجة كالشمس في الظهور ، والفاظة كالماء في السلاسة ، وكالنسيم في الرقة ، وكالعسل في الحلاوة ، فوجه الشبه واضح في المشـــبه بـــه فيما سبق ، لكنـــه لا يتحقق في المشبه إلا بضرب من التأول ، فالحـــلاوة

---

(٣٠) راجع : أسرار البلاغة ص ٦٤ ـــ ٦٦ ط. رشيد رضا .

مثلا ظاهرة فى العسل ، اما فى الكلام فيراد بهـــا قبول النفس له ، وأنس الروح بـــه ، ومنه ما يحتاج إلى قـــدر زائد من التأمل حتى يحتـــاج فى استخراجه إلى فضل روية ولطف فكرة ولا يعرف المقصود من التشبيه فيه بديهية النظر ، كقول فاطمة بنت الخرشب الانمارية وقد سئلت عن

ايهم أفضل ؟ فقالت : هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاهـــا — اى لتناسب أصولهم فى الشرف يمتنع تعيـــين بعضهم فاضلا ، وبعضهم أفضل منه ، كما أن الحلقة المفرغة يمتنع تعيين بعضها طرفا وبعضها وســـطا وبعضها نهاية ، فلا يفهم ذلك حق الفهم الا من لـــه ذهن ونظر يرتفـــع به عن طبقـــة العـــامة .

وعلى هذا يحكم (عبد القاهر) بأن التشبيه عام والتمثيل اخص منه فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا(٣١) .

التمثيل مفرد ومركب :

كل وجه احتاج إلى تأول فى فهمه ولطف فى الوقوف عليه فإنـــه يعد تمثيلا عند (عبد القاهر) مفردا كما مـــر أو مركبا كقولـــه تعـــالى : **« مثل الـــذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القـــوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهـــدى القوم الظـــالمين »(٣٢)** فالشبه هنا منتزع من عـــدة أمور الفت وقرن بعضها إلى بعض فقد روعى من الحمار فعل مخصوص وهو الحمل ، وأن يكون المحمول شيئا مخصوصا وهو الأسفار التى تعد اوعية العلوم ومستودع ثمار العقول وأن الحمـــار يجهل ما فيها حتى يحصل الشبه المقصود ، إذ لا يحصل من كل واحـــد

---

(٣١) راجع : اسرار البلاغة ص ٦٦ — ٧٣ .
(٣٢) ســـورة الجمعة : ٥ .

من هـــذه الأمور على الإنفراد ، لأن الشبه لا يتعلق بالحمل حتى يكون من الحمار ، ثم لا يتعلق أيضا بحمل الحمار حتى يكون المحمول الأســفار ، ثم لا يتعلق بذلك كله حتى يقترن بـــه جهل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهـــره(٣٣) .

عكس التشبيه بتأول فى التمثيل :

فرق (عبد القاهر) بين التشبيه والتمثيل فيما مضى من جهة عـــدم توقف التشبيه على تأول فى فهمه ، لكونه بينا واضحا يفهم بمجرد النظر، واحتياج التمثيل إلى ذلك التأول ، واداه ذلك إلى أن يقرر بأن التشبيه عام والتمثيل خاص ، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تمثيل تشبيها .

وقد رأى أن بينهما فرقا آخر من جهة (عكس التشبيه) بجعل الفرع أصلا ، والأصل فرعا ، فبين أن ذلك يمكن بسهولة فى التشبيهات الصريحة، ولا يـــكاد يتأتى فى التمثيـــل الا بتأول ، فمـــن قلب التشـــبيه : تشـــبيه الورد بالخـــد للمبالغـــة فى حسنه وجماله وبيان أنـــه بلـــغ فى ذلك مرتبة تجعله جديرا بأن يكون اصـــلا فى الحسن وأساسا فى الجمال .

وكتشبيه ثدي الكواعب بالرمان فى قوله :

ربمـــا تبيـــت اناملـــــــــــى
يجنـــــين رمــــــان النحـــور

وتشبيه الرمان بالثدى فى قول القائل :

ورمانـــــة شـــــبهتها إذ رايتهـــا
بثـــدى كعـــاب او بحقـــة مرمـــر(٣٤)

---

(٣٣) راجع : المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤ .
(٣٤) الكعاب : الفتاة الناهد ، والحقة بالضم كالحق وعاء للطيب وغيره مستدير فى الغالب كثيرا ما يكون من العاج .

وكتشبيه الدموع إذا قطرت على خدود النساء بالطل والقطر كقول الناشىء:

بكت للحبيب وقد راعها

بكاء الحبيب لبعد الديار

كأن الدموع على خدها

بقية طل على جلنار(٣٥)

ثم عكسه كقول البحترى :

شقائق يحملن الندى فكأنه

دموع التصابى فى خدود الخرائد

فترى كيف عكست التشبيهات السابقة فجعل المشبه مشبها بـه والمشبه به مشبها دلالة على أن المشبه بلغ من الشهرة الحد الذى يجعله جديرا بأن يكون أصلا يقاس عليه ومشبها بـه .

وإذا كانت عملية العكس تمت كما رأيت فى التشبيه بدون ما حاجة إلى تأول ، فإنها لا تتم فى التمثيل إلا بعد مزيد من التأول .

ومن هذا الباب قول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها

وقد كحل الليل السماك فأبصرا

فلما كانت الأخلاق توصف بالسعة والضيق وكثر ذلك واستمر توهمه حقيقة فقابل بين سعة الأرض التى هى سعة حقيقية وأخلاق الكريم ، ومما هو حسن جميل من هذا الباب ما روى عن القاضى أبى الحسن

---

(٣٥) الجلنار : زهر الرمان : فارسى معرب .

أنـــه قـــال : انصرفت عن دار الصـــاحب قبيل العيد فجاءني رســـوله بعطـــر الفطر ومعه رقعة فيها هـــذان البيتان :

يايهـــا القـــاضي الـــذى نفســـي لـــه

مـــع قرب عهـــد لقـــائه مشـــــتاقه

اهديـــت عطـــرا مثل طيـــب ثنائـــــه

فكانمـــا اهـــدى لـــه اخلاقـــــــــه

فالعادة جارية بأن يشبه الثناء بالعطر ونحوه ، ويشتق منه ، وقـــد عكس الأمـــر كما ترى ، وذلك على ادعاء أن ثناءه احـــق بصفة العطر وطيبه من العطر واخص بـــه وانـــه قـــد صار اصلا حتى إذا قيس نوع العطر عليه فقد بولغ في صفته بالطيب ، وجعل له في الشرف والفضـــل على حسنه أوفر نصيب(٣٦) .

***

(٣٦) راجع : اسرار البلاغة : ١٦٤ ــ ١٩٢ .

تعقيـــــــب

رأيت (عبد القاهر) يخص التمثيل بما كان الوجه فيه عقليا غـير غرزى سواء أكان مفردا أم مركبا ، وعلى الرغم من أن هذا التقسيم يعـد أوضح التقسيمات وأظهرها ، لأن الشأن فى الحسيات وما يلحق بها من الغرائز والكيفيات النفسية أن تكون واضحة جلية ، فهى باسم التشبيه أولى وأجدر ، وأما العقليات غير الغرزيات فالشأن فيها اللطف والخفاء ، فهى باسم التمثيل أحق وأحرى ، فإن رأى الخطيب القزوينى الـذى جعل التمثيل فى الهيئة المنتزعة من متعدد حسيا كان أو عقليا يكاد يعد أعـدل الآراء لأن بعض الصور الحسية قد تحتاج إلى إعمـال الفـكر وإلطـاف الروية أكثر مما تحتاجه بعض الصور العقلية ، مما يجعلنا لا نضن عليها باسم التمثيل ، وعلى هـذا فيدخل فى التمثيل كل الصور والهيئات الحسية التى أخرجها منه (عبد القاهر) كقول ابن المعتز :

كأن عيون النرجس الغض حولنـــا

مـــداهن در حشـــوهن عقيـــق

وكقـــوله :

اصـبر على مضـض الحســـو

د فـإن صـــبرك قاتلـــه

فالنـــار تأكـــل نفســـها

إن لـم تجـــد مـــا تأكلـــه

وكقول أبى فراس الحمدانى :

والمـاء يفصـــل بـين زهــــ

ـــر الـروض فى الشـطين فصـــلا

كبســـاط وشـــى جـــــردت
ايــدى القيـــون عليــه نصـــــلا

وكقــول بشـــار :

كأن مثــار النقــع فــوق رؤوســـنا
واســيافنا ليــل تهــاوى كواكبـــه

فجميع ذلك مما وجه الشبه فيه هيئة حسـية تمثيل عند الخطيب القزوينى فقط ، تشبيه عند (عبد القاهر) لانه يخص التمثيل كما عرفت بالعقلى غير الغرزى مفردا او مركبا ، وتشبيه كذلك عند السكاكى لانــه يخص التمثيل بالمركب العقلى غير الغرزى ، اما الزمخشرى صاحب الكشاف فانــه لا يقيم فرقــا بين التشبيه والتمثيل .

التشبيه القريب والبعيد

التشبيه ميدان فسيح ، ومجال خصب لتنافس الكتاب والشعراء ، فتتجلى بلاغتهم ، ويبرز سبقهم فى نسج صور تشبيهية تأخذ بلب القارىء، وتستثير إعجابه ، وتملك عليه مشاعره واحاسيسه ، لما فيها من عمــق واصالة ، وابداع وابتكار ، فى الجمع بين المتآلفات ، والتاليف بين المختلفات والمتناقضات ، فإذا بذل الشاعر او الكاتب جهدا فى تأليف صورته التشبيهية من أجزاء كثيرة ، فجمع بينها فى صورة واحدة ، والفها فى تركيب واحد، أو جاء لنــا بصورة لا تخطر ببالنا وبمنظر لا يمر بأفكارنا ، كان ذلك دليلا على بعـــد التشـــبيه وعلو قــدره ، وبرهانـــا على نباهة شأن الكاتب أو الشاعر ، لكنه إذا لم يحاول إتعاب ذهنـــه فى الجمـــع بين المختلفات وتقريب المتباعدات واكتفى بالواضـــح الملموس مما يتوصل إليـــه بمجرد النظـــر ويوقف عليه بلمح البصر ، فانـــه يكون دليلا على وضوح التشبيه ودنو شأنه ، وعدم المعية صاحبه .

وساعرض بين يديك أولا نماذج لتشبيهات قريبة تدرك بمجرد النظر، ولا تحتاج إلى إطالة التأمل والتفكير لإجمال **وجه الشبه فيها ووضوحه ، وكثرة مرور المشبه به فيها على الحواس .**

قال المتنبى فى وصف أسد :

ما قوبلــت عينـــــاه إلا ظنتـــا
تحت الــدجى نـــار الفـــريق حلـــولا(٣٧)

فقد شبه عين الأسد بالنار فى الحمرة على سبيل الجملة من غير تفصيل .

ومنه قول الأمير بن تميم بن المعز فى وصف الخمر :

ناولتهـــا شـــبه خديهـــا مشعشـــعة
صـــرفا كان ســـناها ضـــوء مقيـــاس(٣٨)

فيشبه الخمر بخدى محبوبته فى الحمرة على سبيل **الإجمـــال دون نظر لأكثر من ذلك .**

وقـــال آخـــر :

والوجـــه مثـــل الصـــبح مبيـــض
والفـــرع مثـــل الليـــل مســـود
ضـــدان لمـــا اســـتجمعا حســـنا
والضـــد يظهـــر حســـنه الضـــد(٣٩)

فيشبه الوجه بالصبح فى البيـــاض ، والشعر بالليل فى السـواد ، بدون نظر إلى أكثر من جنس البياض ، وجنس السواد .

---

(٣٧) الدجى : جمة دجية ، وهى الظلمة ، الفريق : **الجماعة وهو أكثـــر** من العزيمة ، حلولا حالين به أى : نازلين .
(٣٨) مشعشعة : خفيفة ، صرفا : خالص لم يمزج ، السنا : ضــــوء البرق ، المقياس : شعلة نار وتقتبس من معظم النار .
(٣٩) **المفـــرع : الشـــعر .**

وقــول الآخــر :

وادهــم كالغــراب ســواد لــــون

يطــير مــع الريــــاح ولا جنـــاح

فقد شبه الفرس بالغراب فى السواد .

وقــول الآخــر :

لهــا بشــر مثــل الحرير ومنطـــق

رخيـم الحواش لا هـــراء ولا نــزر(٤٠)

فقد شبه جسم محبوبته بالحرير فى النعومة .

وقال ابن الرومى :

يا شـــبيه الـبدر فى الحسن وفى بعـد المنـال

جـد فقـد تنفجـر الصـــخرة بالمـاء الـزلال

فالتشبيه بالبدر من الوضوح بمكان .

وكذلك كل ما كان من هـذا القبيل مما يكون وجه الشبه فيه أمـراً مجملا ، أو المشبه بـه سريع الحضور إلى الذهن والمـرور بالخاطر ، كتشبيه الجواد بالبحر والمطر ، والشجاع بالأسد ، والحسن الوجه بالشمس والقمر ، والسهم الماضى بالسيف ، والعالى الرتبة بالنجم ، والحليم الرزين بالجبل ، والحيى بالبكر ، واللئيم بالكلب ، والقاسى بالحديد والصخر ، والبليد بالحمار ، والوفى بالسموءل ، والسخى بحـاتم ، والحـليم باحنف ، والبليغ بسحبان والخطيب بقس ، والحكيم بلقمان ، والبخيل بمادر وغـير ذلـك .

---

(٤٠) الحواش : جمع حاشية ، وهى الجانب ، الهراء : المنطق الكثير أو الفاسد لا نظام له ، النزر : القليل .

ولما كانت التشبيهات السابقة تدرك بسهولة ، ويوقف عليها بسرعة، ولا تستغرق منا جهدا فى إدراكها ، ولا تعبا فى طلبها فإنها تتسم بالقرب والوضوح لما عرفت من وضوح وجه الشبه فيها **لكونه أمرا مجملا غير مفصل** أو لكثرة وجود المشبه به وحضوره إلى الذهـن عند حضـور المشـبه أو لاجتماعهما معا ، والأمـر المجمل لا يحتاج إلى تعب فى الوصول إليه، ولا يأخذ وقتا للوقـوف عليـه ، وذلك أمـر ثابت ومتقـرر بالنسـبة **للمحسوسات**(٤١) ، حيث نرى بالنظرة الأولى الوصف مجملا ، ثم ندرك التفصيل عند إعادة النظر ، ولذلك قالـوا : النظرة الأولى حمقاء ، وكذلك بالنسبة للسمع وغيره من الحواس ، فنتبين من تفاصيل الصوت باعادته علينا ، حتى تسمعه مـرة ثانية ما لـم نتبينه بالسـماع الأول ، وتدرك من تفصيل طعم المذوق بإعادته إلى اللسـان ما لـم تدركه فى الذوقـة الأولى ، وبادراك التفصيل ، يقع التفاضل بين راء وراء وسامع وسامع، وهكذا ، فأما الجمل فتستوى فيها الاقـدام ، **وكذلك بالنسبة المعقولات،** فالجمل أبدا هى التى تسبق إلى الأوهام ، وتقع فى الخاطر أولا ، بينمـا نجـد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، لا تحضر إلا بعـد أعمال الرويـة والإستعانة بالتذكر ، وعلى ذلك يتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكـر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حـد الجملة وحد التفصيل ، فكلما كان أوغل فى التفصيل ، كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والفقر إلى التأمل والتمهل أشـد .

أما السبب الثانى لقرب التشبيهات السابقة وابتذالها ، فهو قـرب

---

(٤١) وهـى التى تدرك بإحـدى الحـواس الخمس وهـى : المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات .

المشبه بـــه من الأذهان وكثرة دورانه على العيون ، ودوام تردده عـــلى الحواس وإدراكها لـــه فى كل وقت أو فى أغلب الأوقات .

التشبيه البعيد الغريب :

ولما كانت الأشياء تتميز بضدها ، فالبعيد من التشبيه هو ما يأخـــذ منا قـــدرا من التفكير ومزيداً من التأمل للوقوف عليه على خلاف التشبيه القريب ، **لما فى وجه الشبه فيه** من تفصيل يحتاج إلى دقة ملاحظـــة ، ولطرافة المشبه بـــه وقلة مروره على الحواس .

يقول امرؤ القيس :

حملـت ردينيـــا كـــأن ســـــنانه

ســـنا لهـــب لـــم يتصــــل بدخـــان(٤٢)

ويقول عنترة العبسى :

يتابـــع لا يبتـــغى غـــــــيره

بابيـــض كالقبـــس الملتهـــــــــب(٤٣)

فالمشبه والمشبه بـــه متحدان فى البيتين ، والتشبيه فيهما بعيـــد غريب لحاجته إلى أعمال الفكر وكـــد الذهن ، نظرا لمـــا فى وجه الشبه من تفصيل ، ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من : الشكل المخصوص، واللون ، واللمعان ـــ وبالتدبير ندرك أن الأول أكثر بعداً ، وأدخل فى البلاغـــة من الثانى لمـــا فيـــه من تفصيل دقيق لا يأتى بمجرد النظر بل ينشأ بعد التروى والتثبت ، إذ نفى امرؤ القيس عن التشبيه ما يعيبه ،

---

(٤٢) الردينى : هو الرمح نسبة إلى « ردينة » كجهينة ، وهى امـــرأة « سمهر » كجعفر ، وكانا يقومان الرماح واليهما ينسب .

(٤٣) الأبيض : السيف ، القبس : شعلة نار تقتبس من معظـــم النـــار كالمقيـــاس .

وهو الدخان الـــذى يعلو شعلة النـــار وهى المشبه به ، ولا يوجد لـــه نظير فى السنان وهو المشبه تحقيقا لتساوى الطرفين فى وجه الشبه ، فازداد التشبيه روعة وغرابة ، بينما اطلق عنترة القول بدون اســـتثناء هذا العيب الـــذى يقلل من دقـــة التشبيه وروعته فجاء دون الأول .

ومما ورد على منوال بيت امرىء القيس من التشبيهات الغريبة التى تحتاج إلى تأمل وتثبت فى ادراكها لدقـــة التفصيل فى وجه الشبه فيهـــا قول ابن المعتز يصف خروجه بالبازى سحرا إلى الصيد :

غدوت فى ثـــوب مـــن الليـــل خلـــق

بطارح النظـــرة فى كـــل افـــــــق

ذى منســـر اقنى إذا شـــك خـــرق

مختضـــب فى كل يـــوم بعلـــــــق

وكل عظـــم مفصـــــل إذا علـــــق

ومقـــلة تصـــــدقه إذا رمــــــــق

كانهـــــا نرجســــــة بـــــلا ورق

تنشـــب فى الديبـــاج حـــتى يتفتـــق

فقد شبه عين البازى بالنرجسة من جهة اجتماع الشكل المستدير بين الزركشـــة البديعة ، مبعدا ما يقدحه ويعيبه ، حتى يتم التماثل ويتحقق التشابه بـــين الطرفين ، وهو الورق الاخضر الـــذى يحيط بالنرجسة ، ولا يوجد له شبيه فى العين ، لذا كان التشبيه من الروعة والابـــداع . وهـــذا الوجه السابق من وجـــوه التفصيل فى وجـــه الشبه يعتبر ادق

---

(٤٤) معنى التفصيل فى هذا الوجه كما رأيت على اخذ بعض الأوصـــاف ونفى بعضها .

واروع انواع التفصيل ، حيث للتفصيل فى وجه الشبه وجهان آخران(٤٤).
قال الشاعر :

وقــد لاح فى الصبح الثريا لمــن رأى

كعنقــود مــلا حيــة حــين نــــورا(٤٥)

فالتشبيه غريب لحاجته إلى تعب فى تفهم وجه الشبه ، لما فيــه من تفصيل فى وجه الشبه والتفصيل فى هــذا الوجه يختلف عنــه فى الوجه الأول ، فبينما يكون فى الأول بأخذ بعض الأوصاف وترك بعضها(٤٦)، نراه هنـــا يقــوم على استعراض اوصاف المشبه واحدة بعد واحــدة ، واعتبارها كذلك فى المشبه بــه ، فقد اعتبر الشاعر فى تشبيه الثريـــا بالعنقود الأنجم نفســـها ، والشكل واللون ، وكونها مجتمعة على مقــدار فى القرب والبعد ، ثم طلب لها هيئة تشبهها فأصابها فى العنقود المنور من الملاحيـــة إذ هو مكون من اجــرام بيض صــــغار مســـتديرة ليست متلاصقة ولا متباعدة بل لهـــا مقادير فى التقارب والتباعد على نســـبة قريبة مما تجده فى رأى العين بــين تلك الانجم بذلك . فقام التشبيه كما رأيت على اعتبار كل هــذه الاوصاف حتى لو فرض فى تلك الكواكب أن تفترق وتتباعد تباعدا اكثر مما هى عليه الآن ، أو قــدر فى العنقود أن ينثر لــم يكن التشبيه بحالة ، وكذلك الحكم فى تشبيه الثريا باللجــام المفضض فى قول ابن المعتز :

كأن الثريـــا فى أواخــر ليلهــــــــا

مفتــح نـــورا ولجـــام مفضــض

فى مراعاة الهيئة الخاصة من وقــوع تلك القطع والأطراف بــين

---

(٤٥) الملاحية : عنب أبيض طويل — نور : أخرج نوره كالنار .
(٤٦) الذى يقدح فى التشبيه ويضعف من دقتــه .

اتصال وانفصال ، على الشكل الـذى يقتضيه وضعها فى اللجـام ، فلو فرض أن تركب مثلا على سنن واحـد طولا فى سير واحد مثـلا ، ويلصق بعضها ببعض لبطل التشبيه .

وكذلك قول الشاعر يصف الشمس حين طلوعها :

ولاحت الشمس تحكى عند مطلعهـــا

مـرآة تبرسـدت فى كـف مرتعـش

نرى التفصيل فيه يقوم كذلك على استعراض أوصاف المشبه وهى الشمس ، واعتبارها فى المشبه بـه ، وهو المـرآة من الذهب فى كف مرتعشة ، ووجه الشبه : الهيئة (الناتجة من الاستدارة مع الإشـراق واللمعان والاضطراب) ، فقد حفل التشبيه كما رايت بالتفصيلات المتعددة فى طرفيه ، ولذا كان بعيدا غريبـا .

فترى أن هـذا الوجه من التفصيل يقوم على كثرة التفصيل فى وجه الشبه ، بملاحظة أوصاف المشبه واحدة بعد واحدة واعتبارها كذلك فى المشبه بـه ، ويزداد التشبيه دقة بكثرة ما فيه من تفصيلات ، كما يحتاج إلى قـدر زائد من التامل ، كما تتفاوت التشبيهات بعدا وبلاغة لكـثرة التفصيل فى بعضها وقلته فى البعض الآخر ، ولـذا فإن بشـارا بقوله:

كأن مثـار النقـع فـوق رؤوسـنا

واسـيافنا ليـل تهـاوى كواكبـه

فاق المتنبى فى قوله :

يزور الأعـادى فى سـماء عجاجـة

اسـنته فى جانبيهـا الكواكـب

وعمرو بن كلثوم فى قوله :

تبنى سـنابكها من فـوق أرؤسـهم

سـقفا كواكبـه البيـض المبـاتير

فالتشبيه فى كل بعيد غريب لكثرة التفصيل فى وجه الشبه ، وعلى الرغم من ان المشبه واحد فى جميعها وهو الغبار المثار فى ميدان القتال وقد لمعت فيه السيوف وكذلك المشبه بـه وهو الليل المظلم الـذى تبرق فيه الكواكب وتتألق ، إلا انـه بشىء من التأمل نقف على ان بشارا قـد أجاد فى رسـم الصورة كاملة ، وبرع فى التوفيق بين الطرفين ، لانـه راعى ما لـم يراعه الآخران ، ولـذا صار كلامه كما ذكر الإمام عبدالقاهر من انفضل وكرم الموقع ولطف التأثـير فى النفس ما لا يقـل مقـداره ولا يمكن انكاره ، ذلك لانه راعى ما لـم يراعه غـيره ، إذ جعل الكواكب « تهاوى » فاحكم الشبه بين الطرفين بهذه الكلمة التى عبر بها عن هيئة السيوف ، وقد سلت من الاغماد وهى تعلـو وترسب وتجىء وتذهب ، ولـم يقتصر على أن يرينا لمعانها فى أثناء العجاجة ، كما فعل الآخـران فكان لهـذه الزيادة التى زادها حظ من الدقـة تجعلها فى حكم تفصـيل بعد تفصيل(٤٧) .

ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبه قول ابن المعتز فى تشبيه ظلمة الليل وقد لـمع فى جوانبها بريق من ضـوء الصبح يدفعها دفعا قويـا بغراب اسود ذى قـوادم بيض وقـد ازعج من مكانه فاسرع مستمرا فى طيرانه:

كأنـا وضـوء الصبح يستعجل الدجى

نطـير غرابـا ذا قـوادم جـون(٤٨)

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط

---

(٤٧) انظر : أسرار البلاغة ، ص ١٤١ .

(٤٨) قوادم الطير : مقادم ريشه وهى عشرة فى كل جناح الواحد قادمة، والجون بالضم جمع جون بالفتح وهو الأبيض والأسود (ضـد) والمراد هنا : البيض .

أن تكون قــوادم ريشها بيضا ، لأن تلك الفــرق من الظلمــة يقــع فى حواشيها بريق من النــور يتراءى للعــين كشــكل القــوادم البيض فى الغراب الأسود ، وذلك يكون قبيل ظهور معظم الصبح ، وتمام التدقيــق والسحر فى هــذا التشبيه فى شئ آخــر ، وهو أن جعل ضوء الصبح لقــوة ظهوره ودفعه لظلام الليــل كأنــه يحفــز الدجى ويستعجلها ، ولا يرضى منها بأن تتمهل فى حركتها ، ثم لمــا بــدأ بذلك أولا اعتبره فى التشبيه آخرا فقال : (نطير غرابا) ولــم يقل : غراب يطير مثلا ، وذلك أن الغراب وكل طائر إذا كان واقعا هادئا فى مكان فأزعج وأخيف وأطير منه ، أو كان قد حبس فى يد أو قفص فأرسل كان ذلك لا محالة أســرع لطيرانه وأعجل وأشد لــه وأبعد لأمده ، فإن تلك الفزعــة التى تعرض لــه من تنفيره أو الفرحة التى تدركه لانطلاقه وقراره مما تدعوه إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق ويصير إلى حيث لا تراه العيون ، وليس كذلك إذا طار عن اختيار لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانــه الأول ، وألا يسرع فى طيرانه ، بل يمشى على هينة ، ويتحرك حركة غير المستعجل .

فقد حفل التشبيه كما ترى بكل هــذه التفصيلات التى لا تأتى عرضا بل بتدبر وتمهل ولــذا كان بعيدا غريبا ، وقد عرفت أن التفصيل فيه من الوجه الثانى القــائم على استعراض أوصاف المشــبه ثم اعتبارها فى المشبه بــه .

الوجه الثالث من أوجه التفصيل فى وجه الشبه :

وللتفصيل فى وجه الشبه وجه ثالث يتمثل فى ملاحظة خصوصية فى الوصف الذى يراد إشراك الطرفين فيه ، لأن الاشتراك فى الصفة إذا كان من جهة الجملة على الاطلاق بحيث لا يشوبه شئ من التفصــيل نحو

أن كلا الشيئين أسود أو أحمر فهو فى غنى عن التشبيه فإن دخل التفصيل شىء نحو : أن هــذا السواد صاف براق ، والحمرة رقيقة ناصعة احتجت بقــدر ذلك إلى إدارة الفكر ، وذلك مثل تشبيه حمرة الخد بحمرة التفاح والورد فإن زاد تفصيل مخصوص تدق العبارة عنه ، ويتعرف عليه بفضل تأمل ، ازداد الأمــر قــوة فى اقتضاء الفكر ، وذلك نحــو تشبيه سقط النار بعين الديك فى قول الشاعر :

وسقط كعين الديــك عاورت صحبتى

اباهــا وهيانــا لموقعهــا وكــــــرا(٤٩)

فلم يقصــد فيه إلى جنس الحمرة مجمــلا ، بل قصــد إلى ما فى عينه من تفصيل وخصوص ، والتفصيل والخصوص الــذى فى عينــه يزيد على كون الحمرة رقيقة ناصعة والسواد صافيا براقا ، وذلك لا يتأتى ببديهة النظر ، بل لابد فيه من التثبت ، لــذا كان التشبيه بعيدا غريبا .

وتتفــاضل التشبيهات كذلك من ناحية التدقيق فى الخاصــية التى لوحظ اشراك الطرفين فيهــا ، لذلك كان قــول ذى الرمة فى وصــف النــــاقة :

كأن على انيابهــا كــل ســـــحرة

صياح البوازى من صريف اللوائك(٥٠)

---

(٤٩) الصحبة : اسم جمع صاحب ، وعاورتهم : تناوبت معهم ، والبيت فى وصف السقط الذى يكون من الزند وهو مثلث السين ، والأشهر منها الكسر ، ومن عادتهم عنــدما يريدون اســتخراج النــار أنهم كانوا يأتون بالعودين فيضعون أحدهما أســفل ويسمونه الأنثى ، ويفرضون فيــه فرضــا ويجرون فيــه عودا آخــر يسمونه الأب ،

=

أرفع طبقة من قول امرىء القيس :

كأن صليل المروحين تشذه : صليل زيوف ينتقدن بعبقرا(٥١)

لأن التفصيل والخصوص فى صوت البازى أبين وأظهر منه فى صليل الزيوف ، إذ أن صوت البازى قلما يسمع .

ندرة تكرار المشبه به على الحواس :

أما السبب الثانى لبعد التشبيه وغرابته ، فهو ندرة تكرار المشبه به على الحواس ، وبطء حضوره إلى الذهن عند حضور المشبه إليه ، **أما لبعد المناسبة بين الطرفين** : كقوله تعالى : **(والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)** **(٥٢)** فصورة العرجون القديم موجودة بكثرة ،

=

وأحيانا ينقرون نقرا فى العود الأول ، ويبرمون اى يديبون فيه الثانى ، وهو قائم فإذا طال زمن العمل ، ولم تخرج النار تناوب العود المذكر وهو الأب جماعة الواحد بعد الآخر بحركة حتى تخرج ، والمراد من الوكر ما تودع فيه النار بعد خروجها كالخشب والفحم ونحوهما .

(٥٠) السحرة : بضم العين — السحر الأعلى قبل انصداع الفجر — الصريف : صوت الناب ، والثوائك : جمع لائك والمراد بها : المواضغ .

(٥١) المرو : الحجارة البيض الرقاق ، وتشذه إشذاذا : تنحيه ، وعبقر : قيل بلدة فى اليمن مشهورة بتزييف النقود ، وقيل : هى قرية للجن ينسبون إليها كل عجيب فى الحسن والقبح .

(٥٢) والعرجون : سباطة البلح إذا يبست انحنت وتقوست فتكون أشبه شىء بتقوس الهلال .

لكن يندر حضورها إلى الذهن عند حضور المشبه ، وهو القمر ، ولـذا كان التشبيه غريبـا لأنه جمع بين شيئين لا تناسب بينهما فى الذاكرة ، ولا مرور لهما بالخاطـر ، فأحدهما فى السـماء والآخـر فى الأرض ، وأحدهما رمز للعلو والشهرة ، والثانى دليل على الحقارة ، ففرق شاسع وبون بعيد بينهما ، ومنه قول عبد الله بن المعتز فى وصف البنفسج :

ولا زورديـه تزهو بزرقتهـا
بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنهـا فوق قامات ضعفن بهـا
أوائل النار فى أطراف كبريت(٥٣)

فالمشبه : أزهار البنفسج الزرق على السيقان الضعيفة ، والمشبه به أوائل النـار فى أطراف الكبريت ، ووجه الشبه : هو الهيئة الناتجة من اللون الخـاص متصلا بالساق الدقيقة المخالفة للونه .

وتدرك أن المشبه به يكثر وجوده ، لكن يندر حضوره إلى الذهـن ومروره بالخاطر عند حضور المشبه ، لذلك كان التشبيه بعيدا غريبا لبعد المناسبة بين الطرفين ، ولو أنه شـبه البنفسج ببعض النبـاتات ، أو صادف له شبيها فى شىء من المتلونات ما كانت لـه هـذه الغرابة ولـم ينل من الحسن هـذا الحظ ، كما تدرك مبلغ دقـة الشـاعر فى التعبير بأوائل النـار فى أطراف الكبريت ، لأنهـا لو كانت على غير ذلك لكانت حمراء لا زرقاء فيسقط التشابه وتقل روعته ، ولذا يذكر عبد القاهـر فى بيـان سر طرافة هـذا التشبيه وجمال وقعه : « ومبنى الطباع وموضوع الجبلة على ان الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منـه ، وخرج من

---

(٥٣) المراد باللازوردية : زهور البنفسج ، والقامات : سوق النبات .

موضع ليس بمعدن له كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجـــدر »(٥٤) .

وأما لكونه تشبيها تمثيليا :

ويكتسب التشبيه صـفة البلاغة والبعد إذا كان وجه الشبه فيـه هيئة منتزعة من متعـدد حسيا كان ذلك أو عقليـا وهو ما يعــرف بالتمثيل(٥٥) ، فمن المركب العقلى قول الله تعالى : **(انما مثل الحيـــاة الدنيـا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبـات الأرض مما يأكل الناس والأنعـام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلهـا انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليـلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقـوم يتفكرون) (٥٦)** وقوله عز وجل : **(اعلموا انما الحياة الدنيـا لعب ولهو وزينة ، وتفاخـر بينكم وتكاثر فى الاموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نبـاته ثم يهيج فتـراه مصفرا ثم يكون حطـاما وفى الآخـرة عذاب شديد ومغفرة من الله رضوان وما الحياة الدنيا إلا متـاع الغرور) (٥٧)** فالمشبه فى الآيتين هيئة والمشبه به هيئة كذلك ووجه الشبه فيهما هيئة منتزعة من متعـدد وهى : الهيئة الحاصلة من زوال الدنيـا وفنائها بعـد اقبالها وانتعاشها ، فالوجه كما ترى مركب عقلى يحتاج إلى تأمل وتدبر فى الوقوف عليـه لذا كان التشبيه بعيدا غريبا ، كما أن فيـه تفصـيلا كثيرا . لذا يجتمع فيـه سببا البعد .

---

(٥٤) انظر : أسرار البـلاغة ص : ١٠١ ، ١٠٢ .

(٥٥) هـذا هو الرأى الراجح فى التمثيل وهو رأى الخطيب القزوينى ، أما عبد القاهر فيخص التمثيل بما كان الوجه فيـه عقليا مفـردا أو مركبا ، والسكاكى يخصه بالعقلى المركب ، بينما لا يرى جار الله الزمخشرى فرقا بين التشبيه والتمثيل .

(٥٦) سـورة يونس : ٢٤ .

(٥٧) سـورة الحـديد : ١٩ .

ومن المركب العقلي كذلك قول الله عز وجل : (**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين**) (٥٨) فالمشبه : هو : حال أحبار اليهود وقد قرأوا التوراة وحفظوها ولم يعملوا بما فيها والمشبه به : حال حمار يحمل أسفارا هي أوعية العلوم ومستودع ثمار العقول . وهو جاهل بكل ما فيها ولاحظ له من حملها إلا النصب والتعب . ووجه الشبه : تحمل التعب في استصحاب الشيء مع الجهل به . وهو مركب عقلي يحتاج إلى تأمل . كما أن فيه تفصيلا كثيرا .

ومنه كذلك قول صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدبته في الصبا
كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مونقا ناضرا
بعد الذي أبصرت من يبسه

فالمشبه هو : حال الصبي يتعهد بالتأديب والتربية في صباه ، والمشبه به : حال العود يعتني بسقيه منذ الغراس ووجه الشبه : أن كلا يجدي فيه العلاج وينفع فيه التعب لمصادفة موقعه .

كذلك من المركب العقلي الذي يحتاج إلى تأمل في الوصول إليه قول كثير عزة :

لقد أطمعتني بالوصال تبسما
وبعد رجائي أعرضت وتولت

---

(٥٨) سورة الجمعة : ٥ .

كما ابرقت قومـا عطاشا غمامة

فلمـا رجـوها اقشعت وتجلت

فالمشبه : حاله مع محبوبته وقد اطمعته بالوصـال الذى هو فى امس الحاجة إليـه ثـم اعرضت عنـه فخاب امله وانقطع رجـاؤه ، والمشبه به قوم عطاش يتلهفون إلى المـاء فراوا سـحابة تبرق من بعـد فاملوا الرى منهـا ثم تركتهم وانصرفت . ووجه الشبه : ظهور امارات الظفر بالمقصود للمحتاج إليـه ، ثم تركه فى يأس وحـزن بعـد السرور والفـرح .

فالتشبيهات السابقة بعيدة وغريبة ، لمـا تحتاجه من اطالة الفـكر وزيادة التأمل للوقوف على وجه الشبه لكونه مركبا عقليا .

ومن التشبيه التمثيلى لكون الوجه فيـه مركبا حسيا قول ابى فراس الحمدانى :

والمـاء يفصل بين زهـ ـر الروض فى الشطين فصلا

كبساط وشـى جـردت ايدى القيـون عليه نصـلا

فالمشبه هو : حـال المـاء ينساب بين روضين على شاطئيه وقـد وشاهما الزهر بالوانه الرائعة . والمشبه به : حـال سـيف مسـتطيل لا يزال براقا لامعـا وقـد سله القيون على بساط اخضر موشى مزركش . ووجه الشبه : هو الهيئة الناتجـة من وجـود شىء مستطيل أبيض فى وسط شىء مبسوط اخضر ، ومنه كذلك قول الشاعر فى وصف الشمس عنـد طلوعها :

ولاحت الشمس تحكى عند مطلعها

مـرآة تبرىدت فى كف مرتعـش

فالمشبه : حـــال الشمس وقت طلوعها حمراء مضطربة والمشبه به : الهيئة الحاصلة من مرآة من ذهب فى كف مرتعش : ووجه الشبه هو : الهيئة الحاصلة من الاستدارة والاشراق واللمعان والاضطراب .

وقـــول بشـــار :

كأن مثـار النقـــع فوق رؤوســنا

وأسـيافنا ليــل تهـاوى كواكبه

فالمشبه : حـال النقــع وقــد لمعت فيــه السيوف أو الأســنة والمشبه به حـــال الليل المظلم تتهـاوى كواكبه ، ووجه الشبه : هـــو الهيئة الناتجة من وجود شيء أحمر لامع يهتز ويضطرب فى جوانب شيء مظـــلم .

فوجه الشبه فيما مضى تتطلب معاناة فى الوقوف عليه سواء أكان عقليـــا أم حســيا ولذا كان التشبيه التمثيلى بعيدا غريبـــا لاجتماع سببى البعد فيه وهما :

ندرة تكرار المشبه به على الحـــواس ، وكثرة التفصـــيل فى وجـــه الشـــبه .

وأما لكونه أمرا وهميا أو خياليا(٥٩) :

ويندر كذلك تكرار المشبه به على الحواس لكونه أمرا وهميا لا وجود له إلا فى الوهم أو خياليـــا لا وجود له إلا فى الخيـــال ، فمن الوهمى

(٥٩) الفرق بين الوهمى والخيالى : أن الوهمى لا وجـــود له أصـــلا بعناصره المفـــردة أو بصورته المركبـــة إلا فى الوهم ولذلك يجعله البلاغيون من العقليات .

أما الخيالى : فإن صورته المركبة لا وجود لها إلا فى خيـــــال أصحابها ، بينما توجد عناصره المفـــردة فى الواقع ، لذلك يجعله البلاغيون من الحســـيات .

قوله تعالى فى تصوير طلع شـجرة الزقـوم : (**طلعهـا كأنه رؤوس الشياطين**) (٦٠) فالمشبه : الطلع ، والمشبه به : رؤوس الشياطين ، وهو شىء وهمى إذ لا وجود لرؤوس الشياطين ، إلا فى الأوهام ، ولذا كان بعيدا غريبا ، ومثله قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضـاجعى

ومسنونه زرق كأنيـاب أغوال

فالمشبه : الرماح المسنونة ، والمشبه به : أنيـاب الأغوال ، ووجه الشبه : الحـدة والتشبيه بعيد غريب لندرة حضور المشبه به إلى الذهن عند حضور المشبه لكونه أمرا وهميا إذ لا مزيد فى بعـد الشىء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعا أصـلا حتى لا يتصور إلا فى الوهم .

ومن الخيالى قول أبى بكر الصنوبرى :

وكأن محمر الشقيق إذا تصوب أو تصـعد

أعلام ياقوت نشـر ن على رماح من زبرجد(٦١)

فقد شبه زهر الشقيق الأحمر على سوقه الخضر ، تصعده الريـح مرة إلى أعلى ، وتميله إلى أدنى تارة أخـرى بأعلام من الياقوت الأحمر منشورة على رماح من الزبرجد الأخضر ، ووجه الشبه : الهيئة الناتجـة من وجـود شىء أحمر مبسوط على شىء أخضر ، ولا وجود لهذه الصورة إلا فى الخيال ، لذا كان التشبيه بعيداً غريبا .

---

(٦٠) سـورة الصافات : ٦٥ .
(٦١) شقائق النعمان : نبـات أحمر الزهر ، وسميت بهـذا لحمرتهـا تشبيها لهـا بشقيقة البرق .

ومثله قول الشاعر :

كلتا باسط اليد نحو تياوفرند
كدبابيس عسجد قضبها من زبرجد(٦٢)

فقد شبه ازهار التيلوفر الصفر على سيقانها الخضر ، بدبابيس ذات رأس كالكرة من العسجد وقضبها من الزبرجد الأخضر ، ووجه الشبه : هو الهيئة الناتجة من وجود شيء مستدير أصفر على حامل مستطيل اخضر ، فالتشبيه بعيد غريب لعدم وجود هذه الصورة إلا فى الخيال .

ومنه أيضا قول ابن المعتز :

كان عيون النرجس الفض حولنا
مداهن درحشوهن عقيق(٦٣)

فقد شبه ازهار النرجس الغض بمداهن درحشوها عقيق ، ووجه الشبه : هو الهيئة الناتجة من اجتماع اجرام صغار بيض مستديرة متلاصقة على شكل دائرة تحيط بدائرة اخرى حمراء ، فالتشبيه بعيد غريب لندرة وجود صورة المشبه به وعدم وجودها إلا فى الخيال ، إذ لم يعهد ان يؤلف الدر على شكل المداهن ، وان يكون العقيق هو الحشو الذى يوضع فى جوفه . (ولا يخفى عليك ان كثيرا من التشبيهات السابقة ألتى اكتسبت صفة البعد والغرابة لكون المشبه به فيها وهميا أو خياليا او مركبا عقليا او حسيا ، قد اجتمع فيها

---

(٦٢) تصوب : اتجه إلى أدنى ، تصعد : اتجه إلى أعلى ، بفعل الرياح فى الحالين ، والياقوت : حجر نفيس تختلف الوانه والمراد هنا : الأحمر — والزبرجد : حجر نفيس وأشهره الأخضر ، وهو المراد هنا .

(٦٣) المداهن : جمع مدهن — قارورة المدهن ، العقيق : خرز أحمر .

سببا البعد ، وهما كثرة التفصيل ، وندرة تكرار المشبه به على الحواس ، غير أن السبب الثانى أكثر ظهورا ، إذ لا مزيد فى بعد الشىء عن العيون على أن يكون وجوده ممتنعا أصلا حتى لا يتصور إلا فى الوهم أو الخيال) .

قلة مرور المشبه به على الحواس :

ويكتسب التشبيه كذلك صفة البعد والغرابة إذا قل مرور المشبه به على الحواس كقول الشاعر :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل

لما بدت من خدرها فوق الجبل

فقد يقضى الإنسان دهره ، ويستنفد عمره ، ولا يتفق له أن يرى مرآة فى كف أشل . لذا كان التشبيه بعيدا غريبا . وقول ابن المعتز :

وكان البرق مصحف قار فانطباقا مرة وانفتاحا

فيشبه البرق فى انبساطه وانقباضه والتماعه والتلاؤة بالمصحف فى يد قارىء يوالى فتحه وأطباقه . ووجه الشبه : الهيئة الحاصلة من توالى انبساط يصحبه التماع وبياض ، ثم يعقبه انقباض واظلام ، وهذه الهيئة ينـدر وجودها ، لذا كان التشبيه بعيدا غريبا .

وقد تبين لك فيما مضى أن كثيرا من التشبيهات تتفاضل من جهة ما فيها من الدقة والتفصيل فى وجه الشبه ، كذلك ينبغى أن تعرف أن كثيرا من التشبيهات تتفاضل من ناحية الجهد الذى يبذله الكاتب أو الشاعر فى استحضار صورة بديعة غريبة لا يلتفت إليها الذهن ولا يتعلق بها الخاطر ، لذلك كان قول الشاعر فى وصفه البنفسج :

ولا زورديـــه تزهـو بزرقتهـا

بين الرياض عــلى حمر اليواقيت

كانهــا فوق قامات ضــعفن بهــا

اوائــل النــار فى اطراف الكبريت

أروع واعجب من تشبيهه النرجس بمداهن درحشوهن عقيــق فى قــوله :

كان عيون النــرجس الغض حولنا

مـداهن درحشــوهن عقيـــــق

على الرغم من أن المشبه به فى الأول موجود ، والثانى لا وجود لــه إلا فى الخيــال ، وذلك للدقــة التى بدت فى الأول فى التوفيق بين شيئين لا يتفقــان إلا على ســبيل الندرة ، ولذا يقول عبد القاهر فى تعليل جمال الأول : « لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غض يرف(٦٤) واوراق رطبــة تــرى المــاء منها يشف بلهب نار مستول عليــه اليبس ، وباد فيــه الكلف ، ومبني الطباع وموضوع الجبلة على ان الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهــد ظهوره منــه وخــرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجــدر(٦٥) .

كذلك نرى الصورة التشبيهية فى قول أبى طالب الرقى :

وكان إجــرام النجـوم لوامعـا

درر نثرن على بســاط ازرق

---

(٦٤) رف النبات : اهتز واضطربت اغصانه .

(٦٥) انظر : اسرار البــلاغة ص : ١٠١ ، ١٠٢ .

ادخل فى البعد والغرابة من قول ذى الرمة :

كحلاء في برح صفراء فى نعـــج

كأنها فضـــة قـــد مسها ذهب(٦٦)

مع كون التشبيه فيهما غريبـــا لندرة تكرار المشبه به على الحواس ، لكن المشبه به فى الثانى لـــا كان اكثـــر وجـــودا منـــه فى الأول ، كان التشبيه الأول اعلى طبقة وارفع منزلة من التشبيه الثانى ، فإن النـــاس يرون أبدا فى الصياغات فضة قد أجرى فيهـــا ذهب ، وطليب به ، ولا يكاد يتفق أن يوجد در قـــد نثر على بساط أزرق .

تحول التشبيه القريب إلى بعيـــد غريب

عرفت فيما سبق من خـــلال النماذج الموضـــحة ، والأمثلة المبينـــة معنى القـــرب والبعد فى التشبيه ، وأسباب ذلك ودواعيه ، وسر بلاغة الثانى دون الأول ، وهنـــا الفت ذهنك إلى أن كثيرا من الصور التشبيهية التى عرفت بقربها لظهور وجه الشبه فيها نظـــرا لعمومه وكونه أمرا مجملا لا تفصـــيل فيـــه ، وكثرة تكرار المشبه به على الحواس حيث يتوصل إليهـــا بمجرد النظـــر ويوقف عليها بلمح البصر ، قـــد يتصرف فيهـــا ، ويدخل عليها من اللطف ما يكسوها جمالا ، فتخرج من القـــرب والابتذال إلى الغـــرابة والإبداع ومن ثـــم لا يتوصل إليهـــا إلا بالتعمل والمزيد من التأمل واطالة الفـــكر وكد الذهن وذلك يكون بواحد مما يلى :

١ ـــ التشـــبيه الضـــمنى :

وهو الذى لا يجـــرى فيـــه التشبيه على طريقته المعهودة وسننه المـــألوف من التصريح بالطرفين واشراكهما فى وجـــه شـــبه معين باداة

---

(٦٦) البرح : أن يكون بياض العين محدقا بالسواد كله ، والجميل الحسن الوجه ، والنعج : الإبيضاض الخالص .

أو بغير اداة ، بل يلمح التشبيه ، ويفهم من مضمون الكلام ومن سـياق التركيب ، انظر إلى قول ابى تمـام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى

فالسـيل حـرب للمكان العالى

فتراه يستدل على خلو بيوت الكرام فى كثير من الأحـوال ، من مظاهر الغنى والترف بقمم الجبـال التى لا تبقى ولا تثبت كثيرا فى وجه السيول والأعاصـير ، فالتشبيه من الغرابة بحيث لا يدرك إلا بعـد ترو وتثبت لأنه يفهم من مضمون الكلام ، ولعـدم التصريح به ، لذا كان بعيدا غريبـا .

ومثل قول ابى الطيب المتنبى :

من يهن يسـهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايـلام

فقد استدل على تحمل الذليل لمـا ينزل به من هوان وما يعتـريه من ضـياع وعدم أكتراثه بذلك ، بالميت الذى لا تؤلمـه الجـراح ، ولم يصرح بالتشبيه كما ترى ، بل انه يفهم من مضمون الكلام ، لذا كان بعيدا غريبـا .

ومنه قول ابى نواس يمدح العباس بن الفضل بن الربيع :

إن السحاب لتستحى إذا نظـرت

إلى نداك فقاسـته بمـا فيهـا

فأنت تعلم أن تشبيه الجـواد بالسحاب ، تشبيه قريب مبتذل لظهور وجـه الشبه فيـه ، لكن الشاعر اخرجه من القـرب إلى البعـد ، بعدم التصريح به ، وما توهمه من ان السحاب حى حساس يستحى ويخجل حينما يوازن بين فيضـه وفيض الممدوح .

ومنه أيضا قول المتنبى فى مدح هارون بن عبد العزيز :

لم تحك نائلك السحاب وإنما

حمت به فصبيبها الرحضاء

لم تلق هذا الوجه شمس نهارنا

إلا بوجه ليس فيه حياء

فالتشبيه بالسحاب فى البيت الأول قريب لما علمت ، وقد أخرجه إلى الغرابة عدم التصريح به ، ولهذه العلة الطريفة التى علل بها الشاعر لنزول المطر من السحاب بأنه من أثر الحمى التى ألمت به نتيجة غيظه من كرم الممدوح .

كذلك التشبيه بالشمس فى الحسن والجمال فى البيت الثانى من التشبيهات القريبة ، وقد أخرجه إلى البعد والغرابة ، عدم الإتيان به صريحا ، وما توهمه الشاعر من أن الشمس حى حساس ، قد أصابها الخجل والحياء عندما رأت وجه الممدوح وتطلعت إليه .

ومن التشبيهات الضمنية التى تتطلب مجهودا فكريا فى الوقوف عليها والإحساس بما لها من روعة وجمال خلاف ما سبق قول البحترى :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم

وللسيف حد حين يسطو ورونق

وقول المتنبى :

ومن الخير بطء سيبك عنى

أسرع السحب فى المسير الجهام(٦٧)

(٦٧) السيب : العطاء ، والجهام : السحاب لا ماء فيه

وقول ابى نواس :

سيذكرنى قومى إذا جـد جدهم

وفى الليلة الظلماء يفتقد البـدر

وقول ابى العتاهية :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها

إن السفينة لا تجرى على اليبس

وقول البحترى فى وصف أخلاق ممدوحه :

وقـد زادها إفراط حسن جوارها

خلائق أصـفار من المجـد خيب

وحسن درارى الكواكب ان ترى

طوالع فى داج من الليل غيهب

وقول أبى تمـام :

اصـبر على مضض الحسـود فإن صـبرك قاتلـه

فالنـار تاكل بعضـهـا

إن لـم تجـد مـا تاكله

وقال : ليس الحجاب بمقص عنك لى املا

إن السماء ترجى حـين تحتجب(٦٨)

وقول أبى الطيب :

فإن تفـق الأنـام وانـت منهـم

فإن المسـك بعض دم الغـزال

---

(٦٨) يقصد بالحجاب هنا : احتجاب الأمير الممدوح عن الناس ، وتحتجب : تختفى عن الناس بالغمام .

٢ - التشبيه المقلوب :

كذلك يكتسب التشبيه وصف البعد والغرابة بعكسه ، وهو جعل المشبه مشبها به ، مبالغة فى كماله وتمامه ، ودلالة على انه اقوى واظهر فى وجه الشبه ، ومنه قول محمد بن وهيب الحميرى :

وبدا الصباح كان غرته
وجه الخليفة حين يمتدح

فالعرف جار على تشبيه الوجه الجميل بالصبح ، وإن كان التشبيه فيه مبتذلا لكثرة مرور المشبه به على الحواس ، إلا ان الشاعر اخرجه إلى البعد والغرابة بادعاء ان وجه الخليفة اقوى من الصباح فى الجمال والإشراق ، ولذا جعله مشبها به ، واصبح التشبيه بعيدا غريبا لا ينال إلا بالتدبر ولا يوقف عليه إلا بالتأمل والتبصر .

وقال البحترى متغزلا :

فى طلعة البدر شىء من محاسنها
وللقضيب نصيب من تثنيها

فتشبيه الوجه الجميل بالبدر ، والقوام المعتدل بالغصن الرطيب تشبيه واضح وقريب ، لكن الشاعر اخرجه إلى الغرابة والبعد بعكس التشبيه مبالغة وادعاء أن المشبه ادخل فى وجه الشبه من المشبه به ، ولم يكتف بذلك ، بل ادعى أن البدر فيه بعض حسنها ، وأن الغصن فيه شىء من اعتدالها ، وبذا صار التشبيه بديعا طريفا .

ومنه قول ابن بابك يمدح أبا سعد على بن محمد بن خلف الهمذانى :

الايا رياض الحزن من أبرق الحمى
نسيك مسروق ووصفك منتحل

حكيت أبا سعد فنشرك نشـــره

ولكن له صـــدق الهوى ولك الملل(٦٩)

فتشبيه الرائحة الطيبة برائحة الرياض تشبيه قريب لظهور وجـــه الشبه ووضوحه ، لكنـــه أخرجه إلى البعـــد والغرابة بهذه الصـــنعة اللطيفة ، إذ عكس التشبيه ، واتهم الرياض بالسرقة ، ووصفها بالذبول والجفاف ، وأثبت لمدوحه صدق الهوى والبقاء على العهد ، وبذلك صار التشبيه من الدقة والندرة بمكان .

٣ — التشـــبيه المشـــروط :

كما يكتسب التشبيه صـــفة البعد والغرابة ، ويرتفع عن درجـــة الإمتهان والإبتذال إلى قمـــة المجـــد بتقييد المشبه أو المشبه به بقيـــود ، يتوقف عليها تمـــام التشبيه ، انظـــر إلى قـــول رشيد الدين الوطواط :

عزماته مثـــل النجـــوم ثواقبـــا

لو لم يكن للثاقبـــات أفـــول(٧٠)

فترى أن التشبيه واضح وظاهر ، لاستيفائه أركانه ، وقد أخـــرجه الشاعر إلى البعـــد والغرابة بهذا القيد الذى قيـــد به المشبه به ، وهو عدم الزوال بالنسبة للنجـــوم حتى يتحقق التشبيه بينها وبين عزمـــات الممدوح ، ولمـــا كان هـــذا القيـــد خياليا بالنسبة للنجوم ، حيث أنـــه لا بقـــاء لهـــا فى مرأى العين دائما وفى كل حـــال ، كانت عزمات الممدوح أنفـــذ وأقوى من الكواكب لأنهـــا دائمة لا تزول ، فهى ثواقب آناء الليل وآناء النهـــار ، ومنه قول أبى تمـــام :

---

(٦٩) الحـــزن : ما غلظ من الأرض ، أبرق الحمى : مـــكان ، النشر : الرائحة ، الملل : الســـأم .

(٧٠) جمع ثاقب : وهو المصدر ، أفول : غروب .

مهــا الوحش إلا أن هاتا أوانس

قنـــا الخط إلا أن تلك ذوابـــل

فلو لم تكن هذه القيود لكان التشبيه قريبـــا ، لكنه خـــرج بهـــا إلى البعد والغرابة لأن تشبيه العيون الواســـعة بعيون المهـــا تشبيه قريب ، وكذلك تشبيه القـــوام المعتدل بالرمح ، غير أن وصف المشبه فى الأول بالانس ، ووصف المشبه به فى الثانى بالذبول جعل المشبه فى كليهما أرفع طبقة من المشبه به وصار التشبيه بديعا طريفا .

كذلك قول بديع الزمان الهمذانى مادحا :

يكاد يحكيك صـــوب الغيث منســـكبا

لو كان طلق المحيـــا يمطر الذهبـــا

والبدر لو لم يغب والشمس لو نطقت

والأسد لو لم تصد والبحر لو عذبا

فتشبيه الجواد بالغيث والبحـــر والحسن الطلعة بالبدر والشمس ، والشجاع بالأســـد من التشبيهات القريبة الواضـــحة التى لا تحتاج إلى معاناة فى تأملها والوقوف عليها، لكنها خرجت إلى الغرابة ، واكتسبت صـــفة البعد بهذه القيود وتلك الشروط التى يتوقف عليها تمام التشبيه .

تعـــدد التشـــبيه :

يكتسب التشبيه كذلك ســـمة البعد والغرابة بتعدد المشبه بـــه ، أو بتعددهما معـــا ، وبذا يرتفـــع عن الابتذال والإمتهان إلى العلو والرفعة لمـــا يحتاجه من التفكير والتأمل . يقول البحترى :

---

(٧١) المنضد : المنظم ، البرد : حب الغمام ، الاقاح : جمع أقحوان وهو زهرة وورق أبيض صغير يشبه الأسنان فى لونه وشكله .

كأنما يبسم عن لؤلؤ   منضد أو برد أو أقاح(٧١)

فتشبيه الأسنان باللؤلؤ والبرد والأقحوان تشبيه قريب مبتذل ، لكنه خرج إلى البعد لتعدد التشبيه بتعدد المشبه به ، وبذا صار طريفا ، وأغرب منه قول امرىء القيس فى وصف فرسه :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة

وإرخاء سرحان وتقريب تنفل(٧٢)

فقد جمع الشاعر بين مجموعة من التشبيهات تعدد فيها المشبه والمشبه به ، فقد وصف خاصرة الفرس بالضمور إذ شبهها بما هو مثل فى ذلك وهو الظبى ، كما وصف ساقيه بالدقة ، حيث شبههما بالأصل فى ذلك وهما ساقا النعامة ، كما وصف جريه باللين والسرعة حيث شبهه بالأصل فى ذلك وهو الذئب ، ووصفه بالسرعة المنتظمة حيث شبهه بالأصل فى ذلك وهو الثعلب ، وبذا صار التشبيه جميلا بديعا .

المراد بالبعد :

ونحن نتحدث عن بعد التشبيه وغرابته وان ذلك من عوامل بلاغته ومن أسباب رفعته فينبغى الا يخطر ببالك أن المراد بالبعد ما يكون منشؤه الغموض فى فهم المعانى لما فى الأساليب من تعقيد والتواء وتعمية ، بل إنه البعد الذى ينشأ عن لطف المعانى ودقتها ، والبراعة فى ترتيب بعضها على بعض ، ولذا فإن البديع من التشبيه ما كان من هذا النوع البعيد — لغرابته ، ولأن الشىء إذا نيل بعد الطلب له ، والاشتياق إليه ،

---

(٧٢) أيطلا : تثنية أيطل ، وهو الخاصرة ، وجمع على أياطل ، الإرخاء : شدة العدو ، السرحان : الذئب ، التقريب : ضرب من العدو ، التنفل : الثعلب .

كان نيـله أحلى ، وموقعه من النفس ألطف ، وبالمسرة أولى ، ولهـذا ضرب المثل لكل ما لطف موقعه ببرد المـاء على الظما كما قال :

وهن ينبذن من قول يصبن بـه
مواقع المـاء من ذى الغلة الصادى

ومما سبق تدرك مكانة التشبيه من البلاغة ومنزلته من البيـان ، ولم نستقص الحـديث عن كل ما يتصل به ، وإنما قدمنا لك بعضـا من نماذجه ، وطرفا من شواهده لتدرك روعته وتحس قيمتـه ، وتقف على أثره وفائدته(٧٣) .

* * *

(٧٣) ونمضى بعد ذلك إلى واد آخـر من أودية البيـان بخاصة واللغـة بعامة وهو المجاز بنوعيه : العقلى واللغوى ، ومن اللغوى : المرسل والاستعارة التى تقوم على التشبيه ويعد أصلا لها .

المجـــــاز

قيمتـــه البـــلاغية ـــ انواعـــــه

من عوامل نمو لغتنـــا ، وثرائها بالمفردات والتراكيب المجـــاز فإنه يفيح السبيل ويهيىء الفرصـــة امـــام الكتاب والادباء والشعراء والخطباء ليعبروا عما يدور بخواطرهم ويعتلج فى صدورهم ويجرى فى أحاسيسهم ، فلا يجدون مشقة فى التعبير ، ولا حرجا فى التصوير ، وإنما يمدهم المجاز بكل ما يشـــاءون وبجميع ما يريدون ، وفضـــلا عن هـــذا فإنـــه يكسب الاسلوب جمالا ، ويضفى عليـــه روعة وبهـــاء ، ويمـــكن المعـــانى من الأذهان ، ويثبتها فى الصـــدور ، لذا كان مجـــالا رحبا ، وميدانا فسيحا ، وحقلا خصيبا للتنافس بين الادباء والشعراء . وهو متعدد الأنواع ، ومتفرع الألوان ، وبالنماذج التالية سنقف على انواعه ونتثبت من ألوانه .

يقول ابن العميـــد :

قامت تظللنى من الشمس نفس أحـــب إلى من نفسى
قامت تظللنى ومن عجـــب شمس تظللنى من الشمس

فالشمس قد وردت مرتين : أولا بمعنى الشمس الحقيقية المعروفة ، وثانيا : أريد بهـــا إنسان يشبه الشمس فى الضـــياء والإشراق ، بقرينة تظللنى ، لأن الشمس الحقيقية لا تظلل فقد استعملت الشمس إذا فى غير معناها الحقيقى لعـــلاقة المشابهة بين ما وضعت له وما استعملت فيه مع قرينة مانعـــة من إرادة المعنى الحقيقى لها ، ولذلك تسمى : مجـــازا بالاستعارة .

ويقول المتنبى :

له أياد على سابغة أعد منها ولا أعددها(١)

فلا يراد بالأيادى المعنى الحقيقى لها فى كلام المتنبى ، وإنما يراد منها نعم الممدوح عليه التى تعد الأيادى سببا فيها ، فالأيادى مستعملة فى غير معناها الحقيقى ، لكن ليس لعلاقة المشابهة كما مر ، إذ لا مشابهة بين النعم والأيادى ، وإنما لعلاقة السببية وذلك ما يسمى بالمجاز المرسل .

وتدرك أن التجوز فيما سبق من الاستعارة والمجاز المرسل كان فى الألفاظ وذلك يعرف بالمجاز اللغوى ، فالمجاز اللغوى : هو الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى ، وهو يكون استعارة إن كانت العلاقة المشابهة ، ومجازا مرسلا إن كانت غير المشابهة .

وقد يكون التجوز فى الإسناد والتركيب ، انظر إلى قول المتنبى يصف ملك الروم بعد أن هزمه سيف الدولة :

ويمشى به العكاز فى الدير تائبا
وقد كان يأبى مشى أشقر أجردا(٢)

---

(١) أى إن نعم الممدوح على واسعة ، وأنا واحدة منها ، ولا أتمكن من تعدادها .

(٢) العكاز : عصا فى طرفها زج ، وقوله : مشى أشقر أجرد - أى مشى جواد أشقر أجرد ، والأشقر من الخيل : الأحمر والأجرد : القصير الشعر ، يقول ، انه أقام فى دير الرهبان وصار يمشى على العكاز تائبا من الحرب بعد أن كان لا يرضى مشي الجواد الأشقر ، وهو أسرع الخيل عند العرب .

فقد أسند الفعل إلى غير ما حقه أن يسند إليه ، فالعكاز لا يمشى ، وإنما يسير صاحبه لكن لما كان العكاز سببا فى المشى أسند الفعل إليه ، فالتجوز فى الإسناد ، ولذلك يسمى هذا اللون من المجاز بالمجاز العقلى أو الحكمى .

فالمجاز نوعان : لغوى وعقلى ، واللغوى : مرسل واستعارة ، وسنبدأ بالمجاز المرسل .

المجاز المرسل

عرف المجاز المرسل بأنه اللفظ المستعمل فى غير معناه لعلاقة غير المشابهة ، وسمى مرسلا لارساله أى إطلاقه عن التقيد بعلاقة خاصة — وعلاقاته متنوعة — ذكرنا منها السببية وعرفت مثالا لها ، ومن أمثلة المجاز المرسل لعلاقة السببية قوله تعالى : **(قد بدت البغضاء من أفواههم)** (٣) فالمجاز فى لفظ البغضاء — وقد تجوز بها عن الكلمات الدالة على الكراهية ، والقرينة : « بدت » والعلاقة السببية ، وسر العدول عن الحقيقة إلى المجاز هو : المبالغة فى الكلام الدال على العداوة ، وتصويره بصورة البغضاء ، للاشعار بأن الذى بدا من أفواههم هو ذات البغضاء ، على الرغم من محاولتهم إخفاءها فى صدورهم ، وذلك دليل على أنها قد تمكنت من قلوبهم ، وملأت نفوسهم ، حتى أبت إلا أن تفيض فتنحدر من ثنايا أفواههم ، فكأنه قيل : قد بدت الكلمات الدالة على الكراهية من أفواههم ، لأن سببها وهو البغضاء قد ملأ قلوبهم ، وذلك هو تأويل قول البيانيين : إن المجاز كدعوى الشيء بالبينة والبرهان ،

---

(٣) سورة آل عمران : ١١٨ .

لأنه يؤكد المعنى ويقرره ، ومن جهة ثانية : فقد صور المسبب بصورة السبب واطلق إسمه عليه ، وفى ذلك تنفير شديد من اتخاذ مثل هؤلاء بطانة ، ومن جهة ثالثة ، فى هذا الإيجاز الرائع ففرق بين قولنا : « قد بدت الكلمات الدالة على الكراهية من أفواههم » — وبين قول الله عز وجل : **قد بدت البغضاء من افواههم »** .

ومن علاقة السببية قولك : رعت حيواناتنا المطر — اى النبات الحادث بالغيث وقول السموأل :

تسيل على حد السيوف نفوسنا

وليس على غير السيوف تسيل

فالنفوس مجاز عن الدماء التى تسيل ، لأن وجود النفوس فى الأجسام سبب لوجود الدماء فيها — وقول الشاعر :

وما من يد إلا يد الله فوقها

ولا ظالم إلا سيبلى باظلم

فاليد فى الموضعين مجاز عن القوة او القدرة لانها سبب فيها .

وقول المتنبى :

رايتك محض العلم فى محض قدرة

ولو شئت كان الحلم منك المهندا(٤)

فقد اطلق المهند واراد الحرب ، لأن السيف آلة الحرب وسبب لها .

(٤) المحض : الخالص ، والمهند : السيف الهندى ، والمراد هنا الحرب يقول : رايتك خالص الحلم فى قدرة خالصة لا يشوبها عجز ، ولو شئت ان تجعل الحرب مكان الحلم لفعلت .

وقولك : تفرقت كلمة القوم ، اى آراؤهم ، فتجوز بالكلمة عن الآراء لأن الكلمة سبب فى ظهور الآراء .

المسببة : كقولك أمطرت السماء نباتا ، اى ماء تسبب عنه النبات ، وتناولت كاس الشفاء ، اى الدواء ، ومنه قول الله عز وجل : **(ينزل لكم من السماء رزقا)** (٥) اى مطرا تسبب عنه الرزق ، وقوله : **(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة)** (٦) فقد اريد من القوة الاسلحة بكل الوانها واشكالها ، وسر العدول عن الحقيقة لا يخفى عليك ، هو حث المسلمين على تجهيز جيوشهم وتزويدها بأحدث الأسلحة وأشدها لتكون جيوشهم أقوى الجيوش فى العالم ، فتبقى للاسلام مكانته وتدوم له هيبته وعزته ، وفضلا عن هذا فالأسلوب غاية فى الايجاز والدقة .

الكلية : كقولك : شربت ماء النيل أى بعضه ، وسكنت مصر اى منزلا منها بقرينة شربت وسكنت وكقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : **(وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا)** (٧) فالذى يجعل فى الآذان هو الأنامل لا الأصابع ، وافاد المجاز المبالغة فى إعراضهم وتمردهم وعدم إستجابتهم لدعوة نوح عليه السلام ، ومثله قوله عز وجل : **(يجعلون اصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت)** (٨) فقد اطلقت كلمة الأصابع وأريد منها الانامل بقرينة : يجعلون ، وافاد المجاز : المبالغة ودقة التصوير لحالهم ، وما هم عليه من رعب

---

(٥) سورة غافر : ١٣ .
(٦) سورة الأنفال : ٦٠ .
(٧) سورة نوح : ٧ .
(٨) سورة البقرة : ١٩ .

وهلع يخلعان القلوب ، وليس ادل على ذلك من انـه افاد ان هـؤلاء المنـافقين يحـاولون من هول الرعود القاصـفة والصواعق المدمـرة ان يدخلوا كل الاصابع في آذانهم حتى لا تصرعهم تلك الصواعق فتميتهم .

وقوله تعالى : **(يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم)** (٩) فتجـوز بالأفواه عن الألسنة لعـلاقة الكلية .

الجـزئية : كاطلاق العـين على الجاسوس في قولك : بث الحاكم عيونه في المدينـة ، ومعلوم أن العـين اظهر عضو يكون به التجسس ، فـلا يكون باليـد ولا بغيرها ، فصارت كأنها الشخص كله ، ومنـه قوله تعالى : **قم الليل إلا قليـلا)** (١٠) أي صل ، وقول النبي ﷺ : (من قام رمضـان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقـدم من ذنبه) أي من صـلى . وقولك : القى الخطيب كلمة كان لها كبير الاثـر على أنفس المستمعين أي خطبة ، وقوله تعالى في شأن موسى عليـه السلام : **(فرجعنـاك إلى امـك كي تقـر عينها ولا تحـزن)** (١١) فالهـدوء والاستقرار للنفس والجسم ، فاطلاق العين عليهما اكتفاء بالجـزء عن الكل .

وقولك : سأجازيك على ما قـدمت يداك ، أي بما عملت ، فعبـر باليـد وهي جزء من الكل . ومنـه : الإسـلام يحث على تحرير الرقاب ، أي العبيد ، وعبر بالرقاب ، لكونها عادة موضع وضـع الاغـلال في العبيـد المـأسورين(١٢) .

---

(٩) سـورة آل عمران : ١٦٧ .
(١٠) سـورة المزمل : ٢ .
(١١) سـورة القصص : ١٣ .
(١٤) وتلاحظ في جميع الأمثلة التي استعمل فيها الجـزء مقصودا بـه الكل ان لذلك الجـزء اهمية ومزية خاصة وتعلقا وثيقـا بالكل وليس اي جـزء .

اعتبار ما كان : كقولك : من الناس من يأكل القمح ومنهم من يأكل الذرة والشعير . فالمراد بالقمح والذرة والشعير الخبز الذى كان قمحا او ذرة أو شعيرا ، فالعلاقة اعتبار ما كان ، ومنه قوله تعالى : **(وآتوا اليتامى اموالهم)** (١٣) فاليتيم هو الصغير الذى مات ابوه ، ولا يعقل ان يعطى له المال وهو صغير ، بل الواقع أن الله يأمر باعطاء الأموال من وصلوا سن الرشد بعد أن كانوا يتامى ، فكلمة اليتامى هنا مجاز لانها استعملت فى الراشدين .

اعتبار ما سيكون : كقولك : سأوقد نارا ، اى حطبا او وقودا يئول إلى نار ، ومنه قوله عز وجل : **(كتب عليكم القصاص فى القتلى)** (١٤) ففى القتلى : مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون ، لأن القصاص لم يفرض فيمن قتل قبل نزول الآية الكريمة ، وإنما فرض فيمن سيقتل بعد نزولها ،

وقوله : « **إنى أرانى أعصر خمرا** »(١٥) اى عنبا يئول عصيره إلى الخمر ، فالخمر لا تعصر لانها سائل ، وإنما الذى يعصر هو العنب ، فإطلاق الخمر وارادة العنب مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون ، وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام : « **انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا** »(١٦) اى صائرا إلى الفجور والكفر ، لأن المولود حين يولد لا يكون فاجرا ولا كفارا ، لكنه قد يصير إلى ذلك بعد الطفولة وعند الكبر .

---

(١٥) سورة النساء : ٢ .
(١٤) سورة البقرة : ١٧٨ .
(١٥) سورة يوسف : ٣٦ .
(١٦) سورة نوح : ٣٧ .

المحلية : كقوله تعالى : « **واسأل القريـــة التى كنــا فيها** »(١٧) فقد اطلق القرية واراد اهلها ، وقولهم : قرر مجلس الوزراء كذا فالمجلس مكان الجلوس ، وهو لا يقرر شيئا ، وإنما الــذى يقرر هــم الوزراء ، ففى كلمــة المجلس مجاز مرسل علاقتــه المحلية ، وقولك : سرق اللص المنزل ، فالمسروق ما يكون بالمنزل لا المنزل نفســه .

الحالية : كقول المتنبى فى ذم كافور :

إنى نزلـــت بكذابـــين ضـــيفهم
عن القـــرى وعن الترحـــال محـــدود(١٨)

اى : نزل ببلد كذابين ، لأن الكذابين لا ينزل بهم ، وإنما ينزل بمكانهم، فالعلاقة الحالية ، وقوله تعالى : « **واما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** »(١٩) اى فى جنته ، لأن الرحمة معنى من المعــانى والمعنى لا يحل الإنســـان فيه ، ولمــا كانت الرحمــة حالة فى الجنــة تجوز بهـــا عنها .

الآليــة : كقوله تعالى : « **واجعل لى لسان صدق فى الآخرين** »(٢٠)

---

(١٧) ســـورة يوسف : ٨٢ .

(١٨) محـــدود : اى ممنوع ، يعنى ان الذى نزل بســـاحتهم كذابون فى وعودهم ، ضيفهم ممنوع عن الطعام لبخلهم وهم يمنعونه الرحيـــل حتى يظن الناس فيهم الكرم .

(١٩) ســـورة آل عمران : ١٠٧ .

(٢٠) ســـورة الشـــعراء : ٨٤ .

اى ذكرا حسنا ، لأن اللسان آلة الذكر الحسن ، وقوله : « **وما ارسلنا من رسول إلا بلســـان قومه** »(٢١) اى بلغة قومه(٢٢) .

* * *

(٢١) ســـورة إبراهيم : ٤ .

(٢٢) وللمجاز المرسل علاقات اخـــرى عدا ما سبق ، وإنما ذكرنا بعضـــا منهـــا ، ولنتحدث بعـــد ذلك عن الفرع الآخـــر للمجـــاز اللغـــوى الذى تكون العـــلاقة فيـــه بين المعنيين الحقيقى والمجـــازى المشابهة وهى : الإســـتعارة .

الاســـــتعارة

منزلتها من البلاغة :

وقفت من خلال النماذج السابقة على بواعث روعة المجاز المرســل وأسرار جماله ، وناخذ الآن فى تتبع المحاسن البلاغية والأسرار البيانيـــة لركن أصيل من أركان البيان ، والشـــق الآخــر للمجـــاز اللغوى ، وهى الاستعارة التى تضفى على الأساليب بيانا وروعة .

وقبل ان نأخذ فى تعريف الاستعارة وما يتصل بالتعريف من الكلام على انواعها ووجه ارتباطها بالمجاز وغير ذلك من الأمـــور التى تتعلق بها فانى سأعرض بين يديك مجموعة من التراكيب التى زادتها الاستعارة بهجة وجمـــالا .

ولنبدأ بالقرآن الكريم معجم البلاغة وكنز الفصاحة ، والـــذى لـــم يتمكن العرب وهم اهل اللسن والفصاحة أن يأتوا بسورة من مثـــله ، ثم نتبع ذلك بنماذج من الاستعارات فى كلام سيد البلغاء محمد ﷺ الـــذى يلى كلامه كلام رب العزة فى البلاغة والبيان ، ونعرض بعد ذلك لبعـــض الاشعار التى زانتها الاستعارات .

فمن ذلك قول الله عز وجل مخاطبا حبيبه ورسوله محمدا ﷺ طالبا ان يجهر بالدعـــوة إلى دين الله وان يتجاوز نطاق الأسرار إلى الإعـــلان الظاهر والإعلام الواضح « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين »(١) المراد منه : بلـــغ ما أمـــرت بـــه تبليغا بينا واضحا لا يتطرق إليه المحو .

---

(١) سورة الحجر : ٩٤ .

وقد أستفيد هــذا المعنى من التعبير بلفظ : اصدع ، ونلاحظ أن لها معنيين : أحدهما وهى مفردة بعيدة عن التركيب ، والثانى المعنى الــذى يفهم من سياق التركيب ، فمعناها مفردة : الكسر كصدع الزجاجة والمعنى الــذى يحدده التركيب هو التبليغ الواضح المؤثر ، فاستعمال الصــدع فى التبليغ البــين اســتعمال غير حقيقى كما ترى ، وســر العدول عن الحقيقة وهى : بلــغ إلى المجاز وهو : فاصدع . هو المبالغة فى التبليغ وأن يكون مصحوبا بهمة وناشئا عن نشــاط وقــوة ، لــذا كان التعبير المجازى (فاصــدع) أبلــغ من التعبير الحقيقى (فبلغ) لأن الصــدع بالأمر لابد لــه من تأثير كتأثير صــدع الزجاجة ، والتبليغ قد يصــعب حتى لا يكون لــه تأثير فيصير بمنزلة ما لــم يقع ، وقد كان هذا التجوز لعلاقــة بين المعنيين ، تلك العلاقة هى المشابهة ، إذ يتشابه التبليــغ والصدع فى التأثير والإيصال إلا أن الإيصال الــذى لــه تأثير كصــدع الزجاجة أبلــغ .

وقال تعالى : « **إنا لمــا طغى المــاء حملناكــم فى الجــارية** »(٢) أى كثر وفاض فيضانا شديدا ، أفاد ذلك التعبير « بطغى » المستعملة فى غير معناها الحقيقى ، ولا تؤدى كلمة : زاد أو عــلا أو كثر وغير ذلك من الألفاظ المستعملة فى معانيها الحقيقية هذا المعنى مما يشهد بفضل المجاز، والعلاقة بين الزيادة الحقيقية والطغيان المجازى هو المشابهة فى تجاوز الحد ، وفهمنا خروج الطغيان عن معناه الحقيقى الموضوع لــه فى اللغة إلى المعنى المجازى المراد وهو تجاوز الحد من إيقاع الطغيان على المــاء، فقد جرت العادة على نسبة الطغيان إلى الأشخاص ، وقــال عز وجل :

---

(٢) سورة الحاقة : ١٠ .

« ضربت عليهم الـــذلة اينما ثقفـــوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس »(٣)

يريد الله عز وجل أن يبين انهم قـــد عاشـــوا فى ذل وان الـــذل أصـــبح أمـــرا ثابتا لهم فعبر « بضربت » لان الضرب فى الأصل : ضرب الطـــين على الحائط فيلصق به ، أو ضرب الخيمة على من فيها ، ولو قيل : حصلت مكان « ضربت » لـــا تحقق ذلك المعنى ولما كانت تلك الفائدة ، فالتعبير « بضربت » أفاد ملازمة الذلة لهم ، لـــذا كان المجاز فى : « ضربت » أبلغ من الحقيقة فى « حصلت » لما يفيده من الدلالة على تثبيت ما حصل عليهم من الذلة كما يثبت الشيء بالضرب لأن التمكين به محسوس ، والضـــرب مع ذلك ينبىء عن الإذلال والنقص وفى ذلك شـــدة الزجر لهـــم والتنفير من حالهم . والعلاقة بين الحصول والضرب كما ترى هى : الثبات والملازمة والدليل على أن المراد من الضرب الثبات والملازمة هو : إيقاعه على : الذلة والمسكنة فهما معنيان لا يكـــون فيهما ضرب إلا على سبيل التجوز ، وقـــال تعالى : « واشتعل الرأس شيبا »(٤) أى كثر شيب الرأس كثرة زائدة ، وانتشر انتشارا يصعب تلافيه كاشتعال النار أفاد ذلك التعبير « باشتعل » — ودل على إنها مستعملة فى غير معناها الحقيقى اسنادها إلى الرأس لان الرأس لا يشتعل ، وإنما يكون الاشـــتعال للنـــار(٥) ، وتتبين فضل المجاز وقيمته البلاغية فى هذا التعبير لو وضعت مكان الاشتعال ما يرادفه على وجه الحقيقة . وهو كثر أو انتشر — فلا يمكن مهما بالغنا على وجه الحقيقة أو اكثرنا من ذكر المترادفات أن يؤدى التعبير ما يؤديه المجاز ، والعلاقة بين الانتشار الحقيقى والاشتعال المجازى هو الكثرة والزيادة وهى

---

(٣) سورة آل عمران : ١١٢ .
(٤) سورة مريم : ٤ .
(٥) وذلك مجاز آخر فى إسناد اشتعل « للرأس » ، وهي ليست الفاعل

قطعا فى الاشتعال أكثر لأنها لما كانت تتزايد تزايدا سريعا صارت فى الانتشار والإسراع كإشتعال النار ، وقال تعالى مصورا انتصار الحق مهما قل أتباعه على الباطل مهما كثر أشياعه « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »(٦) فكلا من : « نقذف » و « يدمغه » قد أريد بهما غير معناهما الحقيقى بدليل تعلقهما بالحق والباطل ، إذ الحق والباطل أمران معقولان لا يتأتى فيهما قذف ودمغ إلا على سبيل التجوز ، ولو عبر القرآن بما يرادف القذف والدمغ من الألفاظ المستعملة فى معانيها الحقيقية لقال : بل نورد الحق على الباطل فيذهبه ، غير أن ذلك كما ترى لا يفى بقليل مما يمدنا بـه التعبير القرآنى المجازى ، لأن فى القذف دليلا على القهر ، لأنك إذا قلت : قذف به إليه ، فإنما معناه ألقاه إليـه على جهة الاكراه والقهر ، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب ، وكذلك فإن يدمغه أبلغ من يذهبه لما فى يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر فى الكناية وأعلى فى تأثير القـوة .

وقال تعالى : « **عذاب يوم عقيم** »(٧) أى مهلك لا يبقى شيئا بعده، استفيد ذلك من لفظ : « عقيم » الذى دل وصف اليوم بـه على استعماله فى غير معناه الحقيقى ، لأن العقم هو عقم الإنجاب ولا يتعلق بالأيـام او العذاب من الأمـور المعنوية إلا على سبيل التجوز ، وتتبين قيمة المجاز وأثره فى بيان ما فى هذا اليوم من هـول لو عدت إلى التعبير الحقيقى وهو : لا ينتج خيرا ، فالعلاقة بينهما واضحة فى تشابهما فى احـداث

الحقيقى ، وإنما هى مكان للاشتعال ففى الآية مجازان : لغـوى فى « اشتعل » وعقلى فى « واشتعل الرأس » .

(٦) سورة الأنبياء : ١٨ .

(٧) سورة الحج : ٥٥ .

الهلاك ، إلا أنـــه فى الأول أعظم وأبلغ لأنـــه دل على أن ذلك اليـــوم لا خير بعده للمعذبين ، فقيل : يوم عقيم ، أى لا ينتج خيرا .

وقال تعـــالى مصورا كمال قدرتـــه فى حركة الليل والنهار اللذين يسيران وفق نظام سوى وقانون دقيق فيتتابعان بدون توقف ، يتـــم ذلك كله بتسلسل وتمهل فتزول الظلمة رويدا رويدا ليعقبها اشراقة الصـــبح وتغرب الشمس لحظة بلحظة ليعم الظلام الكون « **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** »(٨) فقد صورت كلمة (نسلخ) هذه العملية التى تتم يوميا وتمد أكبر دليل على قدرة الله عز وجل ، وإيقاع السلخ على النهار والليل برهان على انه مستعمل فى غير معناه الحقيقى ، فهو فى الحقيقة كشط الجلد وإزالته عن الذبيح ، والعلاقة بين المعنيين تراها متمثلة فى الإزالة التى تتم شيئا فشيئا ، فالتشبه واضح بينهما وهو فى المجازى اكثر وضوحا وبلاغة لأن السلخ إخراج الشىء مما لابسه وعسر انتزاعـــه منه لالتحامه بـــه ، فكذلك قياس الليـــل ، فترى قيمـــة التعبير بالسلخ فى إفـــادة ما سبق من المبالغة فى عملية الفصل بين الليل والنهار على ما عرفت ومن توضيحها وتبينها بتصويرها بمنظـــر تراه العيون وتدركـــه الابصار ، إلى جانب الوجازة فى التعبير وتتبين ذلك جليا لو عدت بالتعبير إلى سبيل الحقيقة فانك تقـــول : وآية لهم الليل يزول عنـــه النهار ببطء وتمهل . . . فاغنانا عن ذكر ذلك التعبير بالسلخ .

ومن هذا الجانب ، جانب الآيات التى تصور قـــدرة الله الباهرة فى تصريف الكون وتنظيمه قوله عز وجل : « **والصبح إذا تنفس** »(٩) فإسناد

---

(٨) سورة يس : ٣٧ .
(٩) سورة التكوير : ١٨ .

التنفس إلى ضمير الصبح أفادنا أنها لغير معناها الحقيقى لأن التنفس من خواص الحيوان أو النبات ، وبالموازنة بين هذا التعبير المجازى « تنفس » وبين مرادفه الحقيقى وهو : « بدأ انتشاره » يتبين الأثر الذى أضفاه المجاز على الأسلوب ، وإن كانت العلاقة بينهما فى التشابه فى الابتداء ، إلا أننا نراها فى التنفس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس ، وقال تعالى: **« وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ... الآية »**(١٠) فيفيدنا تعلق : الخوض بالآيات على أنه قصد به غير معناه الحقيقى . لأن الخوض لا يكون إلا فى الماء ، ونتبين الأثر البلاغى للمجاز بالموازنة بين مرادفه الحقيقى وهو : « يستهزئون بآياتنا » ، فالتعبير بالخوض أفاد المبالغة فى عدم احترامهم لآيات الله وذكرها بالسوء ، كما أنه أكثر وضوحا على ذلك لإخراجه إلى ما تقع عليه المشاهدة من الملابسة لأنه لا تظهر ملابسة المعانى لهم كما تظهر ملابسة الماء لهم .

وقال تعالى : **(يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا)** (١١) الرقاد النوم وهو مستعمل فى غير معناه الحقيقى ، وحقيقته من مهلكنا ، والمجاز أبلغ لأن النوم أظهر من الموت ، واليقظة أوضح من الإحياء بعد الموت ، فالإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة وليس كذلك الموت والحياة ، والعلاقة بين النوم والهلاك واضحة فى التشابه فى انعدام الأثر فى كل .

وقال تعالى : **(وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى**

---

(١٠) سورة الأنعام : ٦٨ .
(١١) سورة يس : ٥٢ .

الصور فجمعناهم جمعا) (١٢) التموج فى الأصل مختص بالماء ، لذا صرف عن معناه الحقيقى وأريد بـــه معنى آخـــر مجـــازى ، وبالموازنة بـــين مرادفه الحقيقى وهو يختلط يتبين قيمـــة المجـــاز وأثره فى تصوير شدة اضطرابهم والمبالغة فى حركتهم مع توضـــيح المعنى بابرازه فى صـــورة ملموســـة مشاهدة ، لأن قوة المـــاء فى الاختلاط اعظم ذلك إلى جـــوار الايجـــاز الذى تجلى عن وجـــود المجـــاز والعلاقة واضـــحة بين المعنيين وهى : التشابه فى الحـــركة والاضطراب وإن كانت فى الموج اعظم كمـــا بان لك . وقال تعالى (ولا يظلمون نقيرا) (١٣) (ولا يظلمون فتيلا) (١٤) فكل منهما مستعمل فى غيره معنـــاه الحقيقى ، ويفيدان المبالغة فى نفى وقوع ادنى شىء من الظلم للناس من الله عز وجل ، وإن دل مـــراد فهمـــا الحقيقى وهو : « شـــيئا » على نفى وقوع الظلم قليلا كان او كثيرا فى الظاهـــر فإنه لا يتمكن من اللحاق من « النقير » « والفتيل » اللذين اكسبا المعنى وضوحا وظهورا بابرازه فى صورة ملموسة إلى جانب الإيجـــاز فى التعبير .

ومما ورد من الاستعارات فى الأخبـــار النبوية قوله ﷺ فى النهى من الأخـــذ بمشورة الكافرين والاهتداء بآرائهم « لا تستضيئوا بنـــار المشركين ، اى لا تهتدوا براى المشركين ولا تاخذوا بمشورتهم ، فالنـــار مستعملة فى غير معناها الحقيقى وافادت من المبالغة والإيجـــاز وتوضيح المعنى ما لا يخفى عليك وما لا ينهض المـــرادف الحقيقى بالقيام به .

---

(١٢) سورة الكهف : ٩٩ .
(١٣) سورة النساء : ١٢٤ .
(١٤) سورة

ومما ورد من ذلك فى كلام الشعراء قول مسكين الدارمى من شعراء الحماسة :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته
ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى
وتعلم نفسى أنه سوف يهجع

فوصف الغزال بالقناع افاد أنه لا يقصد به المعنى الحقيقى وهو الحيوان المعروف ، وإنما يراد زوجته الجميلة التى تضارع الغزال فى الحسن والجمال ومع ذلك فلا تصرفه عن الإهتمام بضيفه ولطف مؤانسته ومسامرته .

وقال عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن :

لما نظرت إلى عن حدق المها
وبسمت عن متفتح النوار
وعقدت بين قضيب بان اهيف
وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا
وعزمت فيك على دخول النار

فدلتنا كلمة : « بسمت » على أن متفتح النوار لا يراد بها معناها الحقيقى وإنما يقصد بها الأسنان البيضاء اللامعة ، وكذلك افادتنا لفظة « عقدت » على أن قضيب البان وكثيب الرمل لا يراد بهما معناهما الحقيقى وانما يقصد بهما القامة المعتدلة والمؤخرة الضخمة لتشابه بين القوام والقضيب فى الإعتدال وبين العجيزة وكثيب الرمل فى الضخامة والعظم ، ولا يخفى عليك تبين الأثر الرائع الذى تجلى عن

تلك المجازات ، ولذلك يعلق عليهـا ضـياء الدين بن الأثيـر بقوله : « وهذه الأبيات لا تجد لها فى الحسن شريكا ، ولأن يسمى قائلها شحرورا أولى من أن يسمى ديكا »(١٥) .

وقال المتنبى حينما أنذر السحاب بالمطر وكان مع ممدوحه :

تعرض لى السحاب وقـد قفلنـا

فقلت إليـك إن معى السـحابا

نرى كلمة « السحاب » قـد تكرر ذكرها ، فاريد بهـا السـحاب الحقيقى المعروف فى الشـطر الأول ، والممدوح فى الشـطر الثـانى لذا كانت فيـه مجـازية اريد بهـا الممدوح الذى يشـابه السحاب فى الكرم ، والذى دلنـا على خروجها عن معناها الحقيقى فى الثانى لفـظ « معى » فإن السـحاب لا يسير مع الإنسان . وإطلاق السـحاب على الممدوح حقق لنـا فوائد ما كانت لتتحقق بدونه ، من المبالغة فى كرمـه وعطائه ، وتوضـيح ذلك فى صـورة مشاهدة مرئيـة وهى صـورة السـحاب الذى يجود بالغيث ، فضـلا عن الأختصار فى الكلام والإيجاز فى التعبير بفرق بين قوله : إن معى السـحابا وبين مرادفه الحقيقى هو : « إن معى شخصا عظيم الكرم » او لا حـد لكرمه .

وبالنظـر فيما سبق من الأساليب نرى أن كلا منها قـد اشـتمل على لفظـة لها معنيـان : احدهما ما عرفت بـه فى عرف اللغة وميزت بـه عن غيره وهو حقيقى ، والثانى معنى جديد روعيت فيـه اعتبارات

---

(١٥) انظر : المثل السـائر : ضـياء الدين بن الأثير ١٠١/٢ تحقيـق الدكتورين : الحوفى وطبانة .

وهو مجازى ، والاول غير مراد والثانى هو المقصود ، كما لاحظنا أن ثمة علاقة تمثلت بين المعنيين فساغ لنا أن نستخدم الاول فى الثانى ، وكان هناك فى الوقت نفسه دليل يرشدنا إلى المعنى المجازى المقصود وهو القرينة .

لقب علماء البلاغة هذا اللون من التعبير بالاستعارة حيث يستعار المعنى من الاول للثانى لعلاقة المشابهة بينهما كما تتيح صداقة محمد لعلى أن يستعير كتابا منه لفترة معينة ، ولما كانت هناك فى الإعارة الحقيقية دلائل تحدد المستعير والمستعار منه فانه تتعين كذلك فى الأسلوب المشتمل على أستعارات وجود أدلة تحدد اللفظ المستعار ويشير إلى المراد منه ، هذا الدليل يطلق عليه البلاغيون : القرينة .

لذا عرف البلاغيون الاستعارة بأنها اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له .

« الاستعارة مجاز لغوى علاقته المشابهة » :

عرفت فيما سبق من الاساليب أن التجوز كان فى المفردات ، حيث أريد بها غير ما وضعت له فى اللغة ، لذا كانت الاستعارة مجازا لغويا ، كالمجاز المرسل ، غير أنها تختلف عن المجاز المرسل من ناحية العلاقة بين المعنى الحقيقى والمجازى . فالعلاقة بينهما فى الاستعارة المشابهة ، وفى المجاز المرسل غير المشابهة كالسببية والمسببية والكلية والجزئية ... الخ .

فالاستعارة والمجاز المرسل يلتقيان فى كون كل منهما مجازا لغويا ويفترقان من جهة العلاقة كما علمت ، وانت تعرف مما سبق الفرق

بين المجـــاز اللغـــوى الذى يضم الاستعارة والمجـــاز المرسل وبين المجاز العقلى ، إذ ان التجوز فى الأول يتصل بالألفـــاظ من جهـــة خروجها عما وضـــعت له فى اللغـــة والثانى يتمثل التجـــوز فيـــه فى الإســـــناد والتركيب باسناد الفعل إلى فاعله غير الحقيقى .

العـــــلاقة

عرفت بذلك أن الاستعارة نوع من المجـــاز اللغوى كالمجاز المرسل ووقفت على الفـــرق بين المجـــازين اللغـــوى والعقـــلى ، وبـــين كل من الاستعارة والمجـــاز المرسل . فلنتـــكلم بعـــد ذلك على العـــلاقة التى تسوغ لنـــا نقل المعنى من لفظ إلى لفظ آخـــر فى الاستعارة ، لقـــد اشـــتمل التعريف على وجود علاقة بين اللفظين المستعار منـــه والمستعار لـــه حتى تصح الاستعارة ، وتلك العـــلاقة هى المشـــابهة كمـــا فهمت ولضياء الدين بن الأثير تعليل وجيـــه لضرورة وجـــود تلك العـــلاقة فى الاستعارة اللغـــوية بالقياس على العارية الحقيقية التى لا تتـــم إلا بين شخصين بينهما تعـــارف واتصال ، فيقول : وإنما سمى هـــذا القسم من الكلام (استعارة) لأن الأصل فى الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التى هى ضرب من المعاملة ، وهى أن يستعير بعض الناس من بعض شـــيئا من الاشـــياء ، ولا يقـــع ذلك إلا من شخصين بينهما تناسب معرفة ما ، يقتضى استعارة احدهما من الآخـــر شـــيئا ؛ وهـــذا الحكم جـــار فى استعارة الألفـــاظ بعضها من بعض ، فالمشاركة بين اللفظـــين فى نقل المعنى من احـــدهما إلى الآخـــر كالمعرفة بين الشخصين فى نقل الشيء المستعار من احدهما إلى الآخـــر(١٦) .

(١٦) انظر : المثل السائر ٢/٧٧ .

تلك العلاقة التى تبيح لنا التجوز على سبيل الاستعارة هى المشابهة بين المنقول منه والمنقول إليه ، اى المستعار له ، ففى قوله تعالى : **والشعراء يتبعهم الغاوون . الم ترانهم فى كل واد يهيمون . وانهم يقولون مالا يفعلون)** (١٧) نستدل بكلمة « يهيمون » على أن لفظة « واد » مستعملة فى غير معناها الحقيقى ، وأن المراد بها الفنون والاغراض والمعانى آلتى يقصدها الشعراء ، ونبحث عن العلاقة بين الأودية الحقيقية وبين الأغراض الشعرية فنراها تتمثل فى التشابه فى الإتساع والعمق وبذل المجهود فى قطعها ، وخصت الأودية بالاستعارة ، ولم يستعر الطرق والمسالك او ما جرى مجراها لأن معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض ، فكان استعارة الأودية لهما اشبه وأليق(١٨) .

فلابد من وجود علاقة المشابهة بين المستعار منه والمستعار له حتى تتم عملية الاستعارة ، ونفهم من ذلك أن الاستعارة تعتمد على التشبيه وتقوم عليه ، غير أن الاستعارة أكثر مبالغة من التشبيه ، وتفسير ذلك :

أن التشبيه يتفاوت قوة وضعفا من وجوه كثيرة منها استيفاء أركانه وعدم استيفائه لها ، فالتشبيه المتكامل الاركان فى المرتبة الأولى من المبالغة لعدم احتياجه إلى اعمال الذهن وكد الفكر ، يليه فى الابلغية ما حذف احد اركانه الاداة واوجه الشبه ، وفى المرتبة العالية من حيث المبالغة يأتى التشبيه الذى حذف منه وجه الشبه

---

(١٧) سورة الشعراء : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(١٨) المثل السائر ٢/٩٧ .

واداته كقولنا : محمد بحر ، وعلى صاروخ ، وخالد اسد وهو ما يلقبونه بالتشبيه البليغ ، لانه يخيل لنا أن المشبه عين المشبه به وكان حديث التشبيه لم يجر على بال ، ولذا كان المجهود الفكري الذى يبذل فى فهم هذه الصورة اكثر مما يبذل فى غيرها الأمر الذى جعلها فى درجة عالية من جهة المبالغة ، ذلك هو التشبيه البليغ الذى حذف منه الوجه والأداة فاستدعى قدرا من التفكير زائدا ، فما بالك إذا بالاستعارة التى لا تستبقى من أركان التشبيه إلا واحدا ، فهى أكثر إمعانا فى التخيل واشد عمقا فى التناسى ، والقدر الفكرى والمجهود العقلى الذى يبذل فى تأملها والإحساس بروعتها يفوق بمرات ذلك الذى يتطلبه التشبيه البليغ ، انظر إلى قول الله عز وجل : **الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**) (١٩) . وتأمل فلا تتبين المراد من الظلمات والنور إلا بعد إعمال فكر وكد ذهن ، فتستدل بقوله : « أنزلناه إليك » على أن « الظلمات والنور » مستعاران للضلال والهداية لبيان الحالة التى كان عليها الناس قبل القرآن والتى أصبحوا عليها بعد أن عمتهم أنواره وانتفعوا بهديه ، لم تنته قطعا إلى ذلك الفهم إلا بعد مرحلة من كد الذهن كانت سببا فى تقرير هذا المعنى فى نفسك وتأكيده فى وجدانك .

فالاستعارة مع اعتمادها على التشبيه كما رأيت تفترق عنه من جهة أن التخييل فيها أكثر والتناسى فيها أخفى مما يجعلها أدق افتنانا والطف بيانا وأكثر مبالغة لذا كان قولهم : (الاستعارة تبدأ من حيث ينتهى التشبيه) .

---

(١٩) سورة إبراهيم : ١ ، ٢ .

وضح لك مما سبق الفرق بين التشبيه والاستعارة من ناحيتي الشكل والمضمون ، فالاستعارة مع اعتمادها على التشبيه لا تستبقى منه إلا ركنا واحدا المشبه او المشبه به ، فلا يصعب التفريق بينهما من جهة الشكل ، والمبالغة التى تقوم بها الاستعارة تفوق ما يصنعه ارفع انواع التشبيه لما فيها من تناسى التشبيه وادعاء ان المشبه نفس المشبه به . فالفرق بين التشبيه والاستعارة ظاهر كذلك .

ومع وضوح تلك الفوارق بين التشبيه والاستعارة فإن حوارا كبيرا ثار بين علماء البلاغة والنقد حول صورة من صور التشبيه وهى ما يكتفى فيها بالمشبه والمشبه به ويحذف الوجه والأداة اهى تشبيه او استعارة ؟ كقولك : فاطمة بدر ، وعائشة غزال . ولقد انقسموا فى ذلك فريقين : فريق يرى انها استعارة لعدم وجود اداة التشبيه التى تميز التشبيه من الاستعارة ومن هؤلاء : ابو هلال العسكرى ، وأبو الحسن الامدى ، وابو محمد الخفاجى وفريق ثان يرى أنها من التشبيه المضمر الادلة ، ومن هؤلاء : القاضى الجرجانى صاحب « الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وعبد القاهر الجرجانى ، وجار الله الزمخشرى ، والسكاكى ، وضياء الدين بن الأثير وساقوا لذلك حججات متعددة .

والحق أن الأسلوب من قبيل التشبيه المضمر الاداة وليس من قبيل الاستعارة ، كما علل ضياء الدين بن الاثير لذلك بأن التشبيه المضمر الاداة يحسن معه إظهار الادلة بخلاف الاستعارة فلا يحسن ذلك فيها : فقولك : على اسد ـ تشبيه مضمر الاداة ، ولو ذكرت الاداة لما كان هناك قبح ولا عيب فى ذكرها ، بخلاف الاستعارة فإن ذكر الاداة ودخولها على المستعار يزيل كل ما تجلى من بلاغة ويذهب كل ما حدث من بيان وروعة ، فقول الشاعر :

فرعـــاء إن نهضـت لحاجتهـا

عجل القضيب وابطـا الدعص(٢٠)

فالقضيب مستعار للقد ، بجـامع الاعتدال والدعص مستعار للردف بجـامع الكبر والضخامة ووازن بين المعنى على تلك الصورة ، وبينه بعد دخـول اداة التشبيه على المستعار فتقول : عجل قد كالقضيب ، وابطأ ردف كالدعص — فإنك تحس بالفارق الشاسع والبون البعيد بين الأسلوبين من وجوه كثيرة أهمها : المبالغة والإيجـاز .

فالتشبيه المضمر الاداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيـه ، أمـا الاستعارة فلا يحسن فيها ذلك .

وهنـاك تعليل ثان متصل بما سـبق على أن مثل : خالد أسـد وعلى بحـر من قبيل التشبيه المضمر الأداة وليس من قبيل الاستعارة ، وهو ان ظهور المستعار له يذهب بروعة الاستعارة ، ويضـيع بلاغتهـا وجمالها ، ففي قول الواواء الدمشقي :

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت

وردا وعضت على العناب بالبرد

يشع الحسن ويفيض البهـاء في استعارة اللؤلؤ للدمع والنرجس للعين والورد للخـد والعنـاب للانامل والبرد للأسنان ، ولم نصل قطعا إلى ذلك إلا بعـد ترو وتأمل وتثبت ولو حاولنا ان نظهر المستعارات ، فإن الكلام يصبح غثا ثقيـلا لا يحوجنا إلى فـكر ، ولا يستدعي منـا نظـرا

---

(٢٠) الفرعاء التامة الشعر ، والدعص : قطعـة من الرمل مسـتديرة أو الكثيب .

بعـد أن زال بهاؤه ، وذهب حسنه نتيجـة إظهار المستعارات فنقول :

« فأمطرت دموعا كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسقت خـدا كالورد ، وعضت على أنامل مخضوبة كالعنـاب بأسنان كالبرد ، فبين الكلامين بون بعيد كما ترى فالذي يمنع من كونه استعارة أن الاستعارة مبنية على دعوى الإتحـاد : إتحـاد المشبه بالمشبه به ووجود المشبه فى الأسلوب يضعف هـذه الدعوى ، إذ يدل على أنهما إثنـان وليسا شـيئا واحدا .

وأمـر ثالث : يمنع من اطـلاق الاستعارة على هـذه الصـورة ويخصها بالتشبيه هو : أنا إذا لم نجعل قولنا: محمد أسد تشبيها مضـمر الاداة ، فإن المعنى يستحيل ، لأن محمدا ليس أسدا ، وانما هو كالأسد فى شجاعته ، فأداة التشبيه تقدر ضرورة كى لا يستحيل المعنى .

فيستقيم لك أن صـورة التشبيه البليغ الذى حـذف منـه الاداة ووجه الشبه يترجح أن تكون تشبيها ويضعف كونها استعارة .

التناسب بين المستعار له والمستعار منه :

عرفت أنه ينبغى لاتمام عملية التجوز وجـود علاقة بين المعنيـين الحقيقى والمجـازى ، وتختلف هـذه العـلاقة من مجـاز لآخـر فهى فى الاستعارة التشبيه كما رأيت وفى المجـاز المرسل غير المشابهة كالسببية والمسببية والكلية والجـزئية والحليـة واعتبار ما كان واعتبار ما سيكون إلى غير ذلك مما سبق لك معرفته ، وهى فى المجـاز العقلى السببية أو الفاعلية والمفعولية او الزمانية والمكانية .

ولـما كانت الاستعارة كما علمت تستدعى قدرا من التفكير زائـدا للإحساس بروعتها واستشعار جمالها لـما فيها من المبالغة الزائدة الناجمة عن تناسي التشبيه وشدة التخيل فإنه يستحسن أن تكون علاقة التشـابه

بين الطرفين المستعار له والمستعار منه واضحة لا يعسر فهمها ، ولا يصعب تحديد المراد منها ، وأن يكون الشبه بين الطرفين متناسبا وجليا اما بنفسه كما فى تشبيه القد بالغصن فى الإعتدال ، لانه يدرك بالحس ، وإما أن يكون جليا بحسب العرف ، كما فى تشبيه الرجل الشجاع بالأسد ، لأن الأسد معروف بالشجاعة ، ولو لم يتحقق ذلك التناسب بين المستعار له والمستعار منه فإن الإستعارة تفقد قدرا كبيرا من روعتها ، وتصير الغازا وتعمية لا استعارة وتمثيلا ، كما إذا قيل : رأيت أسدا ، واريد إنسان أبخر ، وكما إذا قيل : رأيت إبلا مائة لا تجد فيها راحلة ـ واريد الناس ، أو قيل : رأيت عودا مستقيما أو ان الغرس ، وأريد إنسان مؤدب فى صباه .

وكان خفاء العلاقة بين المستعار له والمستعار منه سببا فى إخراج كثير من الإستعارات من دائرة الحسن ، واستهجان النقاد لها . حتى إن ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة ٤٦٦هـ ، يرى أن الاستعارة ضربان : قريب مختار وبعيد مطرح ؛ وإن القريب المختار منها ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبه واضح ، والبعيد المطرح ما لم يكن كذلك .

ومن الاستعارات التى عابها النقاد لانعدام التناسب بين المستعار له والمستعار منه قول أبى نواس :

بح صوت المال مما منك يشكو ويصيح

فقوله : بح صوت المال من الكلام النازل ، ومراده من ذلك : أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق ، فالمعنى حسن والتعبير عنه قبيح .

وقد كان مسلم بن الوليد اكثر توفيقـا فى هذا المعنى حيث قال :

تظـلم المـال والاعـداء من يـده

لا زال للمـال والاعداء ظـلاما

كذلك عاب النقاد قول ابى نواس :

مـا لرجـل المـال امسـت

تشـتكى منـك الكلالا

وذكروا ان اضـافة « الرجل » إلى « المـال » اقبح من إضـافة الصوت . ومن الاستعارات التى اطرحها النقاد لعـدم التلاؤم بين المستعار منـه والمستعار له قول ابى تمـام :

وكم احرزت منكم على قبح قدرها

صروف النوى من مرهف حسن القد

فاضـافة القـد إلى النوى من البعد بمكان . وقـد علق ابن سنان الخفاجى على هـذه الاستعارة بقوله : « فإن إستعارة القـد لصروف النوى من ابعد ما يقع فى هذا الباب واقبحه ، وإنما يقود ابا تمام إلى هذا وامثاله رغبته فى الصنعة ، حتى كانه يعتقد ان الحسن فى الشعر مقصور عليها ، فيورد منـه لأجل التكلف مالا غاية لقبحه ، ويمده الخاطـر فى بعض المواضع فيأتى بالعجائب الغرائب(٢١) .

كذلك ورد قوله :

بلوناك اما كعب عرضك فى العلا

فعـال ، واماخد مـالك اسـفل

---

(٢١) سر الفصاحة ص : ١٢٥ .

فقوله : « كعب عرضك » و « خد مالك » مما يستهجن ويستقبح ويستنكر ، ومرادهن من ذلك ان عرضك مصون ، ومالك مبذول ، إلا انه عبر عنه أقبح تعبير .

فوضوح الشبه والتناسب فى العـلاقة بين المستعار منـه والمستعار لـه أمر ضرورى لصحة الأستعارة وركن أصيل لتوافر الحسن لهـا ، ولذلك قـد يكون المستعار واحدا فى استعارتين مختلفتين وتحسن إحداهما ولا تحسن الأخـرى لوضوح الشبه وتوافر التناسب أو فقـده ، فقـد استحسن النقاد قول أبى نصرين نباته :

حتى إذا بهـر الأباطح والربـا

نظـرت إليك باعين النـــوار

واستهجنوا قول أبى تمام :

فسرت بقران عين الدين وانشترت

بالأشترين عيون الشرك فاصطلما

وذلك على الرغم من أن المستعار واحـد فيهما وهو العـين ، وان النـوار والشرك لا عيون لهما على الحقيقة ، ومع ذلك قبحت إسـتعارة العيـون للثانى وحسنت للأول ، وعلة ذلك أن النوار يشبه العيون فالشبه واضـح والتنـاسب موجـود والدين والشـرك ليس فيهـما ما يشبهها ولا يقـاربها .

القـــرينة :

لقـد اشتمل التعريف على ضرورة وجـود دليل فى الأسلوب الذى وردت فيـه الاستعارة لنستعين به على تحـديد المعني المجازى المـراد

من اللفظ وانه مستعمل فى غير معنـــاه الحقيقى(٢٢) ، ويلقب البلاغيون هـــذا الدليل بالقرينة . وهى إما أن تفهم من فحـــوى الكلام ومن ســـياق التركيب بدون أن يكون لهـــا لفظ محـــدد وتسمى حينئذ حاليـــة . وذلك كما في قوله تعالى : **(او من كان ميتـــا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منهـــا كذلك زيـــن للكافرين ما كانوا يعملون) (٢٣)** ففى الآيـــة الكريمـــة استعارتان فى « ميتـــا » و « أحييناه » وهما قـــد أستعيرتا للضـــلال والهدى ، والقرينة حاليـــة بدل عليها ســـياق الكلام . ومن ذلك ما قاله الحطيئة فى استعطاف سيدنا عمر رضى الله عنه ليطلقه من الحبس :

ماذا تقول لأفـــراخ بذى مـــرخ
زغب الحواصل لا ماء ولا شجر
القيت كاسبهم فى قعـــر مظلمـــة
فاغفر عليك سلام الله ياعمر(٢٤)

فقد استعار « أفراخ » لأطفاله الصـــغار بجامع الحاجة إلى الرعاية والعناية واستعار كذلك « الكاسب » : الجارح من الطيور ، وليس فى الكلام لفظ اعتمدنا عليـــه فى تحـــديد المراد من اللفظين السابقين ، ولكن

---

(٢٢) والصرف الذهن عن إرادة المعنى الحقيقى ، ويعرف ذلك بالقرينة التى لابد من وجودها بالمقـــال أو بالحال فى جميع صور المجاز وأساليبه : لغويا كان أو عقليا .

(٢٣) ســـورة الأنعـــام : ١٢٢ .

(٢٤) ذو مرخ واد بالحجاز ، زغب : جمع زغباء وهى مأخوذة من الزغب بالتحريك وهوصـــغار الشعر والريش ولينـــة ، والحواصل : جمع حوصـــلة وهى كالمعدة للإنسان ، الكاسب : الجـــارح من ذوات الصيد من السباع والطير .

شاهد الحال ومعرفتنا بقصة الحطيئة مع سيدنا عمر رضى الله عنه وأنه قال الشعر استعطافا له هو ما دلنا على أن اللفظين السابقين مستعملان فى غير معناهما الحقيقى .

وقد تكون القرينة لفظا اشتمل عليه التعبير فتسمى لفظية . واحدا كان ذلك اللفظ ، كقوله تعالى : **(ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) (٢٥)** فالسكوت مستعار لإنتهاء الغضب بجامع الهدوء المترتب على كل منهما ، والقرينة هى لفظة : « الغضب » وهى فاعل الفعل « سكت » فإسناده إليها دل على أن السكوت غير حقيقى .

وقوله تعالى : **(وإذ امسه الشر فذ ودعاء عريض) (٢٦)** أى كثير ، فقد استعار العرض للكثرة ، لأن العرض اكثر مبالغة وتوضيحا ، وكلمة « دعاء » التى وصفت بالعرض هى التى حددت لنا المعنى السابق للعرض وانه مراد به غير معناه الحقيقى . وكذلك قوله تعالى : **(إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) (٢٧)** ففيه استعارة الطغيان للفيضان والزيادة كما سبق لك بجامع مجاوزة الحد فى كل منهما ، ولفظ الماء الذى وقع فاعلا « لطغى » أرشدنا ودلنا على ذلك .

وقد تكون أكثر من لفظ كقوله تعالى : **(وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ..) (٢٨)** فالاستعارة كما عرفت فى

---

(٢٥) سورة الأعراف : ١٥٤ .
(٢٦) سورة فصلت : ٥١ .
(٢٧) سورة الحاقة : ١١ .
(٢٨) سورة البقرة : ٦١ .

« ضربت » وهى مستعارة لملازمة الذلة لهم ، ودلتنا كلمتا « الذلة والمسكنة » وهما نائب فاعل للفعل الذى وقعت فيه الاستعارة على أن الضرب لا يراد به معناه الحقيقى وهو ضرب الخيمة على من فيها أو ضرب الطين على الحائط فيلتصق به ، وإنما يراد به الثبوت والملازمة وهو مجاز عن المعنى السابق ويجمع بينهما التشابه فى الإحاطة واللزوم .

وكقول الشاعر :

فرعاء إن نهضت لحاجتها

عجل القضيب وأبطأ الدعص

فالقضيب مستعار للقد بجامع الاعتدال ، والدعص مستعار للردف بجامع الضخامة كما عرفت ، ودل ذكر « فرعاء » وإسناد النهوض إلى ضميرها على أن « القضيب » و « الدعص » مستعلان فى غير معنيهما الحقيقى ، وقد تكون القرينة اللفظية مجموعة معان قد ضم بعضها إلى بعض ، كقول البحترى :

وصاعقة من نصله تنكفى بها

على أرؤس الأقران خمس سحائب

فقوله : « خمس سحائب » مستعار لأنامل الممدوح ، وعين ذلك الألفاظ السابقة عليه ، وهى « صاعقة » و « من نصلة » « وتنكفى على أرؤس الأقران » فعملت هذه الألفاظ مجتمعة على صرف « خمس سحائب » عن مدلولها الحقيقى ، وتحديد المعنى المراد منها . فالقرينة كما ترى تفيدنا شيئين هما : تحديد المعنى المجازى المراد من اللفظ ، وصرف الذهن عن إرادة المعنى الحقيقى ، وقد عرفت أنها تكون حالية تفهم من السياق أو لفظية ، بلفظ واحد أو أكثر من لفظ .

الفرق بين الاستعارة والكذب :

وإذا كانت القرينة افادتنا فى صرف اللفظ عن معناه الحقيقى ، وحددت لنا المعنى المجازى المراد منه ، فإنها فى الوقت نفسه تخرج الكلام الذى ورد فيه عن دائرة الكذب ، لأن الكاذب لا يقيم دليلا على خلاف ما يزعمه ذلك إلى جانب عملية التاويل فى الاستعارة ، فإن الكذب ليس فيه هذا التاويل .

ولما كنت عرفت ان الاستعارة تعتمد على تناسى التشبيه وإدعاء أن المشبه فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه ، فقد يعترض على ذلك بأن وجود القرينة فى الاستعارة ينافى هذا الادعاء ويقلل من قيمته ، ففى قولك : شاهدت صاروخا يعبر القناة ، كيف يمكن التوفيق بين استعارة الصاروخ للجندى الشجاع الباسل وما يستتبع ذلك مما يفيده تناسى التشبيه من تخيل أن صاروخا حقيقيا يعبر القناة ، وقولك بعد ذلك : يعبر القناة ، الذى يعين أن « الصاروخ » مستعمل فى غير معناه الحقيقى ويراد به الجندى الحاسم .

لقد ذكر العلامة « ابو يعقوب السكاكى » صاحب مفتاح العلوم المتوفى سنة ٦٢٦هـ الإجابة عن ذلك بأن هذا الاسلوب وما شاكله من قولنا : رايت اسدا يرمى تبنى دعوى الاسدية للرجل فيه على إدعاء أن افراد جنس الأسد قسمان بطريق التاويل : متعارف : وهو الذى له غاية الجراة ونهاية قوة البطش مع الصورة المخصوصة ، وهى صورة الحيوان المفترس ، وغير متعارف ، وهو الذى له تلك الجراة وتلك القوة لا مع تلك الصورة ، بل مع صورة اخرى ،

وهى صــــورة الأسد غير المفترس ، على نحـــو ما فعل المتنبى حــين عــد نفســـه وجماعته من جنس الجـــن ، وجماله من جنس الطير قائلا :

نحن قوم ملجـــن فى زى نـــاس

فوق طـــير لهـــا شخوص الجمال

والمعنى الذى تقوم القرينة بصرفه وعدم إرادته هو المعنى المتعارف الذى يسبق إلى الفهم وهو صورة الحيوان المفترس ، فيتعين الآخر ، وهو صورة الأسد غير المفترس ، وحينئذ لا يكون هنـــاك منافاة بين الإصرار على إدعاء الأسدية ونصب القرينة على عدم إرادتهـــا لأن ما يصر عليـــه غير ما تمنع إرادته(٢٩) .

الاستعارة القريبـــة والبعيـــدة :

علمت أن الاستعارة تعتمد على التشبيه ، إذ انهـــا مجـــاز لغـــوى علاقته المشابهة ، وقـــد مر بك عنـــد الكلام على التشبيه أن منه القريب والبعيد وأن المراد بالقريب هو التشبيه الســـهل المبتذل الذى لا يحتـــاج إلى مجهود فكرى فى التعرف على ملامحه ، لأن وجـــه الشبه مما يسرع حضوره إلى الذهن ، او لقـــلة التفصيل فيـــه ، وأن التشبيه البعيد هو الذى يحتاج إلى كد الذهن وإعمال الفـــكر فى الوقوف على أسراره لدقة فى صـــياغته ولأن وجـــه الشبه فيـــه بعيد غريب لا يمر بالذهن إلا نادرا ولا يخطـــر على البـــال كثيرا او لكثرة التفصـــيل فيـــه ، ولمـــا كانت الاستعارة تعتمد على التشبيه فإنهـــا تمر بالمراحل التى يمر بهـــا ، فمنها القريب النـــازل الذى يدرك ببديهة النظـــر ومنها البعيد الغـــريب الذى

---

(٢٩) انظر : بغيـــة الايضاح ص : ١١٦ وما بعدها .

لا يفطن له إلا الخــواص ومن أوتوا ذهنـا ارتفعوا بــه عن طبقـــة العـــــوام .

ومرد القـــرب والبعد فى الاستعارة هو نفس مرده فى التشـــبيه وهو القرب والبعــد فى وجه الشبه ، وفى ذلك شىء من التفصيل ، فلنبدأ بالاستعارة القريبة ، والضرب الأول منها وادنى الضروب قربا من الحقيقة . ما كان الجــامع فيها داخــلا فى مفهوم الطرفين المستعار له والمستعار منــه ، وأن يكون معنى الكلمة المستعارة موجودا فى المستعار لــه من حيث عموم جنســه على الحقيقة ، كاستعارة الطيران لغير ذى الجنــاح إذا أريد المبالغـــة فى السرعة ، وانقضـــاض الكواكب للفرس إذا أسرع فى حـــركته من علو والسباحة له إذا عدا عدوا كان حاله فيــه شـــبيها بحـــالة السابح فى المـــاء ، ومن ذلك ما ورد فى الخبر : « خير النـــاس رجل ممسك بعنـــان فرســـه فى ســـبيل الله كلما ســـمع هيعـــة طار اليهـــا »(٣٠) وكقول امرأة من بنى الحارث ترثى قتيلا :

لو يشـــا طاربــه ذو ميعـــة
لا حـــق الآطال نهد ذو خصل(٣١)

فلفظ « طار » فى الحـــديث والبيت مستعار للعـــدو ، ويشـــترك الطيران والعـــدو فى أمـــر داخل فى مفهومهما ، وهو قطـــع المســـافة

---

(٣٠) يشـــا : أصـــله : يشاء ، والضمير فيـــه لمـــن يرثيه ، والميعة : النشاط ، والآطال : جمع إطل : الخاصرة والمـــراد ضامر الجنبين ، والنهد : القوى ، والخصل : جمع خصـــلة هى : الشعر المجتمع ، تعنى انه لو شـــاء لانجاه ذلك الفرس .

(٣١)

بسرعة ، ولكن الطيران اسرع من العـــدو ، ونحوهما من استعارة الطيران لـلعدو قول بعض العــــرب :

فطــرت بمنصـــلى فى يعمـــلات

دوامى الأيــد يخبطن السريحا(٣٢)

اى مضـــيت مسرعا إلى نوق نجيبـــات فعقـــرتهن فخبطن الســـيور المشدودة على ارجلهن ومن الاستعارات القريبـــة لدخـــول الجـــامع فى مفهوم المستعار له والمستعار منــه استعارة فيض المــاء لانبساط الفجــر وظهوره فى قول البحـــترى :

يتراكمون على الاســـنة فى الوغى

كالفجر فاض على نجـــوم الغيهب

فللفجر انبساط شبيه بحـــركة المـــاء ، وجعلهم كالفجر بالنظر إلى ما عليهم من الدروع اللامعـــة .

ومن هـــذا الضرب الاول من ضروب الاستعارة القريبـــة من الحقيقة استعارة التمزيق لتفريق الجماعة وابعـــاد بعضهم عن بعض فى قـــوله تعالى : (**ومزقناهم كل ممزق**) **(٣٣)** واســـتعارة التقطيع كذلك لتشـــت الجماعات فى قوله تعالى : (**وقطعناهم فى الأرض امما**) **(٣٤)** فالجـــامع فيهما داخل فى مفهوم الطرفين بوضوح ، ومن ذلك استعارة النثر من كونه للأجسام الصغار كالحبوب والقطع الصغيره لاســـقاط المنهزمين وتفريقهم بلا ترتيب كما فى قـــول ابى تمام :

---

(٣٢) المنصل : السيف : واليعملات : النوق المطبوعة على العمل جمـــع يعملة ، والسريح : السير الذى يشد علي ارجلها .

(٣٣) ســـورة ســـبا : ١٩ .

(٣٤) ســـورة الاعراف : ١٦٨ .

وقـد نثرتهم روعة ثـم احدقوا

به مثلما الفـت عقـدا منظمـا

وقـول المتنبى :

نثرتهم فـوق الاحيـدب نثـرة

كما نثرت فوق العـروس الدراهم

فالاستعارة فى كل ما سـبق من الوضوح بمـكان ، لأن وجـه الشبه بين المستعار له والمستعار منـه قريب وظاهـر ومتحقق فيهما .

اما الضرب الثانى من الاستعارة القريبة فهو ما كان الجامع فيهـا واضـحا وليس داخـلا فى مفهوم الطرفين كما فى تشبيه إنسان يتهلل وجهه بالشمس فالجامع بينهما وهو التلألؤ والبهاء غير داخل فى مفهومهما. ومن ذلك قول المتنبى فى مدح سيف الدولة :

احبك يا شمس الزمـان وبـدره

وإن لا منى فيك السـها والفراقد(٣٥)

اى على الرغم من غيظ الحساد ممن هم اقل شأنا منك فإن حـبى لك دائـم ، وفى البيت كما ترى اربع استعارات ، اثنتان منها فى الشمس والبدر بجامع الظهور والتلألؤ ، واثنتان فى السها والفراقد بجامع الصغر ، والجامع كما ترى من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى فكر وتدبر وهو غير داخل فى مفهوم الطرفين ومنه كذلك قوله فى خطاب سيف الدولة :

---

(٣٥) السها : كوكب خفى يمتحن الناس به أبصارهم ، والفراقد : جـمع فرقد وفى السماء فرقدان اثنـان فقـط وهما نجمـان قريبـان من القطب .

أيا أسداً فى جسمه روح ضيغم
وكم أسد أرواحهن كلاب

أى أنك تماثل الأسد بجسمك وروحك ، ومظهرك ومخبرك فى الوقت الذى يوجد فيه من يماثلها من جهة الشكل فقط ، فالجامع وهو الشجاعة فى غاية الوضوح وغير داخل فى مفهوم الطرفين ، لذا كانت الاستعارة فيه من هذا الضرب الثانى من ضروب الاستعارة القريبة .

ومع اتفاق هذا الضرب مع ما سبقه فى وضوح الاستعارة وقربها فإنه يختلف عنه ويرتفع قليلا من جهة اختلاف الجنسين الذين يتحقق الجمع بينهما فجنس الانسان غير جنس الشمس والأسد ، وليس كذلك الطيران وجرى الفرس فإنهما جنس واحد بلاشبه ، وكلاهما مرور وقطع للمسافة وإنما يقع الاختلاف بالسرعة .

فالاستعارة القريبة كما رأيت ما كان الجامع فيها واضحا ظاهرا يدرك بمجرد النظر من غير حاجة إلى تدبر وتمهل سواء أكان داخلا فى مفهوم الطرفين كالضرب الأول أو غير داخل فيهما كالضرب الثانى .

الاستعارة البعيدة :

فإذا ما كان الجامع بين الطرفين من اللطف والغرابة بحيث يحتاج إلى إعمال الفكر واطالة التأمل فإن الاستعارة تكتسب صفة البعد والغرابة ولا يدركها إلا الخواص الذين ارتفعوا عن طبقة العوام لصفاء ذهنهم وثاقب فكرهم ، وذلك يتحقق فى الجامع العقلى ، والشيخ عبد القاهر يرى أن مثل هذه الاستعارات التى يكون الجامع فيها عقليا هى الصميم الخالص من الاستعارة ، والمنزلة التى تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها ، ويتسع لها كيف شاءت المجال فى تفننها وتصرفها ، فلا

يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية والعقول النافذة ، والطباع السليمة، والنفوس المستعدة لأن تعى الحكمة وتعرف فصل الخطاب(٣٦) .

وذلك كاستعارة النور للعلم والإيمان والبيان والحجة الكاشفة عن الحق المزيلة للشك النافية للريب كما فى قوله عز وجل : ((**واتبعوا النور الذى أنزل معه**))(٣٧) فالمراد من النور البيان القرآنى ، فالجامع بين الطرفين ليس واضحا محسوسا كما بين طيران الطائر وجرى الفرس والرجل الشجاع والأسد وإنما هو أمر عقلى يدرك بالتفكر والتدبر ، وبالتأمل نتبين أن المقصد من تشبيه البيان والحجة ونحوهما بالنور ان القلب إذا وردت عليه الحجة صار فى حالة شبيهه بحال البصر إذا صادف النور ووجهت طلائعه نحوه ، ومن ذلك قولك: فلان يتخبط فى أودية الظلام ، باستعارة الظلام للشبهة والجهل والكفر والضلال ، والوجه فيها عقلى يراد منه أن القلب يحصل بالشبهة والجهل فى صفة البصر إذا قيده دجى الليل فلم يجد منصرفا ، فيصير العقل بسبب الشبهة والجهل المانعين من إدراك الحقائق العلمية كالبصر إذا اشتدت على صاحبه ظلمة الليل فلم يدر أين يذهب ، وكذلك فى استعارة الظلمة للضلال والكفر فإن صاحبهما كمن يسعى فى الظلمة فيذهب فى غير الطريق وربما دفع إلى هلك وتردى فى أهوية . فالشبه فى كل ما مضى عقلى والمستعار منه محسوس والمستعار له معقول والوجه عقلى ، ومثله من استعارة المحسوس للمعقول والوجه عقلى استعارة القسطاس للعدل فى قولك : فلان يحكم بالقسطاس ، وكما يقال عن النحو :

---

(٣٦) انظر : اسرار البلاغة ص ٤٥ وما بعدها .
(٣٧) سورة الأعراف ١٥٧ .

انه ميزان الكلام ومعياره ، فالشبه مأخوذ من جسم يحس ويشـاهد لمعنى يعلم ويعقل والوجه عقلى .

وقد يؤخذ الشبه من محسوس لمحسوس . فيكون المستعار منـه محسوسا والمستعار لـه مثله والوجه عقلى ، كقولـه ﷺ : ((إياكـم وخضـراء الدمن ، قيل وما ذاك ؟ قـال : المـراة الحسـناء فى المنبت السـوء))(٣٨) فالمستعار منه ما نبت فى الدمن من الكلا والمستعار لـه المـراة الحسناء فى المنبت السوء وكلاهمـا جسـم يحس ويشـاهد ، إلا انـه لم يقصد بالتشبيه لـون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحتـه ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك بل القصد شبه عقلى بين المـراة الحسناء فى المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر فى رأى العين مع فساد الباطن ، وطيب الفرع مع خبث الاصل .

وقد يكون المستعار منه معقولا والمستعار لـه كذلك ووجه الشبه عقلى ، كقول الشـاعر :

وإذا تبـاع كريمـة او تشـترى

فسـواك بائعهـا وانـت المشـترى

أى فى الوقت الـذى يتخلى كثير من النـاس عن الصفات الطيبة فإنك لا تتوانى عن إحراز الفضائل وتحصيل المكارم ، فالبيع والشراء مستعاران للترك والحصول والجامع عقلى والطرفان كذلك . ومن هذا القبيل استعارة العدم للوجود الـذى لا نفـع وراءه فى قولك : رأيت معدوما يمشى فى الطريق أى إنسانا وجوده كالعـدم ، واستعارة الوجـود للعـدم الذى

(٣٨) الدمن : جمع دمنة ، وهى الموضع الذى فيه السرقين (الزبـل) وكذلك ما اختلط من المـاء والطين عند الحوض .

بقيت آثاره الجميلة فى قولك : زرت موجودا فى قبره تقصد ميتا بقيت آثاره الجميلة التى تحيى ذكره وتديم فى الناس اسمه . فالمستعار منه معقول والمستعار له كذلك ووجه الشبه عقلى .

فترى أن الاستعارات فيما سبق كانت من اللطف والبعد بحيث لا يدركها إلا القلة من أصحاب الفهم الثاقب والفكر النير لكون الجامع فيها عقليا ، وهذا هو الضرب الأول من ضروب الاستعارات البعيدة .

الضرب الثانى من الاستعارات البعيدة : ما كان الجامع بين المستعار منه والمستعار له غريبا بعيدا لا يدرك بمجرد النظر بل بعد تأمل وتدبر كما فى قول طفيل الغنوى يصف نفسه بكثرة الأسفار :

وجعلت كورى فوق ناجية

يقتات شحم سنامها الرحل(٣٩)

فقد استعار « الاقتيات » لإذهاب الرحل شحم السنام بجامع النقص المترتب على كل منهما ، ولما كان الشحم مما يصلح للقوت ، والرحل ينقص منه أبدا ويذيبه فقد وفق الشاعر فيما عناه ، فالغرابة فى وجه الشبه آتية من جهة أن فيه تخييلا بأنه يجرى على الحقيقة ، ومن الاستعارة الغريبة لغرابة وجه الشبه فيها قول ابن المعتز :

حتى إذا ما عرف الصيد الضار

وأذن الصبح لنا فى الإبصار

أى إذا تهيأ لنا أن نبصر ، فقد استعار الإذن لا مكان الرؤية بجامع

---

(٣٩) الكور : رجل البعير ، الناجية : الناقة السريعة .
(٤٠)

ما يترتب على كل منهما من مزاولـة ما كان محظـورا ، ولما كان تعذر الإبصار منعا من الليل جعل إمكانه عند ظهور الصبح إذنا ، فالجامع كمـا ترى غريب لا يدرك بمجرد النظر . لـذا كانت الاستعارة غريبة ونادرة .

الضرب الثالث من الاستعارات البعيدة : ما كان التشبيه فيها نادرا لبعد ما بين الطرفين ، على غرار التشبيه البعيد ، بأن يكون المشبه بـه موجودا بكثرة لكن يندر حضوره إلى الذهن ومروره بالخاطر عند حضـور المشبه لبعد المناسبة بينهما ، كما فى قول يزيد بن مسلمة بن عبد الملك يصف فرسا له بأنه مؤدب ، وأنـه إذا نزل عنه ، وألقى عنانه فى قربوس سرجه وقف مكانه إلى أن يعـود إليه :

عودتـــه فيمـا أزور حبائـبى
إهمالــه ، وكـذاك كـل مخاطـر
وإذا احتـبى قربوســه بعنانـــه
علك الشـكيم إلى إنصـراف الزائـر

فالاستعارة فى (احتبى) واصله : جمع الرجل ظهره وساقيه بثوب ونحوه وقد استعير لجمع القربوس وجانبى فم الفرس بالعنان ممتدا من القربوس إلى جانبى الفم ، بجامع إحاطة شىء لشيئين ضاما احدهما إلى الآخـر ، واحدهما اعلى والآخر اسفل ، ويقصد بالزائر نفسه على سبيل الالتفات ليدل على كمال أدب فرسه ، وأنه لا يبرح مكانـه وإن طال مكثه عـند من يزوره ، فترى أن المستعار منه موجود بكثرة غير انه يندر حضوره إلى الذهن عند حضور المشبه لبعد المناسبة بينهما ، فأحدهما من وادى القعود والآخر من وادى الركوب ، وقد انضم إلى ندرة التشبيه كثرة التفصيل فى وجه الشبه فاجتمع فى الاستعارة سببا البعد فى التشبيه البعيد الغريب

وهما : ندرة التشبيه وكثرة التفصيل فى وجه الشبه لـذا كانت من الدقة والغرابة بحيث لا يدركها إلا أولو النظر السديد والفهم الأريب .

تحول الاستعارة العامية القريبة إلى خاصية بعيدة :

عرفت أن التشبيه القريب يمكن تحويله إلى بعيد غريب إذا ما أضيف إليه من الصنعة البيانية والبديعية بحيث يبعد عن الأذهان ويعلو عـلى الأفهام فـلا ينقاد إلا للمرودين ، كذلك الاستعارة وهى كما عرفت تعتمـد على التشبيه فى جميع أحوالها ، فالاستعارات القريبة النازلة تتناولهـا الملكات المبدعة فتغير طريقها وتجدد كساءها وتجعلها فى أعلى المنـازل وأسمى الدرجات ، انظر إلى قول كثير عزة :

ولمـا قضـينا من منى كـل حاجـة

ومسـح بالأركـان مـن هـو ماسح

وشدت إلى دهم المهـارى رحالنـا

فلم ينظر الغـادى الـذى هو رائـح

أخذنـا بأطـراف الأحـاديث بيننـا

وسالت بأعنـاق المـطى الأباطـح(٤١)

يريد أن الإبل سارت سيرا حثيثا فى غاية السرعة ، وكانت سـرعة فى لين وسلاسة حتى كأنها كانت سيولا وقعت فى تلك الأباطـح فجرت بها ، وقـد دل على ذلك قـوله : « وسالت بأعنـاق المطى الأباطح » فالاستعارة فى قوله : سالت ـ والسيلان هو مرور المـاء بسـرعة ، وقد استعارها لقطع المسافة بسرعة ، وهى استعارة قريبة لا تغيب عن

---

(٤١) دهم : جمع أدهم وهو الأسود . المهارى : الإبـل : جمع مهرية ، الأباطح : جمع أبطح ، وهو مسيل المـاء فيه دقائق الحصى .

أفهام العوام . لكثرة استعمالها وظهور جامعها ، لكن الشاعر اســتطاع أن يخرجها من القرب والإبتذال إلى البعد والغرابة بما اضفاه عليها بهذا التصرف البديع ، فقد أسند الفعل (سالت) إلى (الاباطح) وهى المكان الذى تسير فيه المطى من أسناد ما(للحال إلى المحل)على سبيل المجــاز العقلى،للاشعار بشدة سرعة الإبل وكثرتها وأنها ملأت الاباطح حتى ليتخيل الناظر أن الاباطح هى التى تسير،ولم يكتف الشاعر بهذا التجوز،بل ادخل الأعناق فى السير مع تعدية الفعل إليها بالياء ، لأن السرعة والبطء يظهران غالبا على الاعناق،وبهذا التصرف البديع خرجت الاستعارة كما ترى من القرب والإبتذال إلى البعد بحيث لا يقف على دقائقها ولا يدرك ســرها إلا ذوو الأذهان الصافية والمشاعر الرقيقة . وتستطيع ان تتبين ذلك عمليا لو وازنت بــين الاسلوب خاليا من هــذا التصرف فقلت : وسارت الإبل سيرا حثيثا حتى كأنها كانت ســيولا وقعت فى تلك الاباطح فجرت بها، وبينه بعد أن تصرف فيه بما سبق من قول الشاعر : وسالت بأعناق المطى الاباطح ــ فإنك تدرك البون البعيد بين الاسلوبين ، والأثر البلاغى الــذى صنعته الاستعارة فى قول الشاعر من الإيضاح والمبالغة والإيجاز .

ومثل هــذه الاستعارة فى الحسن وعلو الطبقة فى هذه اللفظــة بعينها قول ابن المعتز :

سالت عليه شعاب الحى حــين دعــا

انصــاره بوجــوه كالدنانـــــير

أراد أنه مطاع فى الحى ، وأنهم يسرعون إلى نصرته ، وأنــه لا يدعوهم لخطب إلا اتوه وكثروا عليــه وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالســيول تجىء من هنا وههنا ، وتنصب من هــذا المسيل وذاك ، حتى يغطى بهــا

الوادى دل على ذلك قوله : (سالت عليه شعاب الحى ...) فقد أستعار السيلان لإقبالهم عليه مسرعين ، والاستعارة كما علمت قريبة يدركهـا الخاصة والعامة لكثرة استعمالها وظهور جامعها ، ولكنه تمكن من إخراجها من دائرة الامتهان إلى مرتبة الحسن والإبداع بما أضاف إليها ، إذ أسـند (سالت) إلى الشعاب دون الأشـخاص الذين حقـه أن يسند إليهـم من إسناد ما للحال إلى المحل على سبيل المجاز العقلى للاشعار بكثرتهم حتى ليتخيل الرائى أن الشعاب هى التى تسـير ، ولـم يكتف بذلك بـل أدخل الوجوه فى السـير ، لأن السرعة والبطء يظهران عليها كالأعناق فى الإبـل ، وعدى الفعل إلى ضمير الممدوح (بعلى) فأكد مقصـوده من كونه مطاعا فى الحى ، وبذا صـارت الاستعارة من الـدقة بمكان ويمكنك أن تدرك قيمة هـذا التصرف لو عـدت بالأسلوب إلى وضـعه الأول قبل إضافة هـذا التصرف إليـه فقلت : سالت الأنصـار فى شعاب الحى ، فإن بين الأسلوبين بونـا بعيدا ، وفرقا كبيرا(٤٢) .

الجمع بين الاستعارات :

كما تخرج الاستعارة القريبة المبتذلة إلى البعد والغرابة بالجمـع بين عـدة استعارات لإلحاق الشكل بالشكل فيشـتد أزرها ويقـوى ساعدها ، ومن ذلك قول امرىء القيس فى وصف الليل :

وليـل كمـوج البحر أرخى سـدوله

على بأنـواع الهمـوم ليبتـلى

(٤٢) انظر : دلائل الإعجاز ص ٥٩ ، وبغية الإيضاح ص ١٢٨ .

فقلت لــه لمــا تمطــى بصـــــلبه
واردف اعجـــازا ونـــــاء بكلكـــل(٤٣)

فقد استعار الصلب لوسط الليل ، والأعجاز لأواخـــره ، والكلكل لأوائل الليل ، وبهذه الاستعارات الثلاث تم للشـــاعر ما اراد كما يذكر الشيخ عبد القاهر ، من تصوير ما يراه الناظر من سواد الليل ، إذا نظر أمامـــه وإذا نظر خلفه ، وإذا رفع البصر ومده فى عرض الجو بصورة البعـــير على ابلغ وجوهها وادقها(٤٤) . فاستعارة الكلكل لأوائل الليل والصلب لوسطه والأعجاز لأواخره من الاستعارات القريبة لظهور جامعها ، واستطاع الشاعر أن يخرجها إلى دائرة البعد والغرابة بأن جمعها لموصوف واحد، فقوى ساعد كل منها بالأخـــرى واشتد ، ولم يكتف بهـــذا ، بل جعـــل (الصلب) يتمطى ، والأعجاز تردف ، والكلكل ينوء ويثقل فأجاد فى رسم الصورة ، حتى أضحت لا تنقاد إلا للمروين .

وخلاصة ما سبق أن مرد القرب والبعد فى الاستعارة إلى القـــرب والبعد فى التشبيه من قلة التفصيل فى وجه الشبه ووجوده بكثرة ، وكثرة التفصيل فيه وندرته حيث تعتمد الاستعارة على التشبيه ، وأن المـــراد بالبعد فى الاستعارة كما اريد بـــه فى التشبيه ليس البعـــد الناتج عن الألغـــاز والتعمية والتعقيد وإنما هو البعد الناشىء عن الدقـــة فى تصريف المعانى وإلباسها جيد العبارات بحيث لا يدرك أسرارها إلا من رزق مـــن الفهـــم حظـــا .

---

(٤٣) السدول : الاستار ، ليبتلى : ليختبر ، تمطى : تمدد ، الصلب : العمود الفقرى ، أردف : اتبع ، الأعجاز : جمع عجز : مؤخر الشيء، ناء بالحمل : أنقله ، الكلكل : الصدر .

(٤٤) انظر : بغية الإيضاح ص ١٢٩ ، والبلاغـــة التطبيقيـــة ص ١٤٢ وما بعدها .

الاستعارة الأصلية والتبعية :

١ ـ الاستعارة الأصلية :

قال تعالى : ((**كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**)) مرت بك هذه الآية وعرفت أن الظلمات والنور مستعارتان للضلال والهدى بقرينة (أنزلناه إليك) والظلمات والنور اسمان جامدان .

وقال المتنبى :

حملت إليه من لسانى حديقة
سقاها الحجا سقى الرياض السحائب

فكلمة (حديقة) مستعارة للشعر الجميل ، ودل على ذلك قوله (من لسانى) وهى كذلك جامدة غير مشتقة .

وقال المتنبى كذلك فى مطلع قصيدة يمدح بها بدر بن عمار :

فى الخد أن عزم الخليط رحيلا
مطر تزيد به الخدود محولا(٤٥)

فكلمة (مطر) مستعارة للدموع الغزيرة بقرينة (فى الخد) وهى كذلك جامدة .

وتقول : زرت اليوم حاتما ، تقصد بحاتم رجلا كريما ، فلفظ (حاتم) مستعار للرجل الكريم ، والقرينة على أنه ليس حاتما الطائى قولك : (اليوم) . كما تقول : استمعت الليلة إلى قس ، تقصد به رجلا بليغا ، وقس مستعار للرجل البليغ ، وليس مقصودا به قس بن ساعدة الأيادى بدليل كلمة (الليلة) فهذه الاستعارات وما ماثلها من كل ما

(٤٥) الخليط : الذى يخالطه المراد به هنا : الحبيب ، محولا : جدبا .

كان المستعار فيه جامدا غير مشتق تسمى بالاستعارات الأصلية ،
وقد حصرها البيانيون فى اسم الجنس ، الذى يدل على ذات صالحة
لأن تصدق على كثيرين ولو تأويلا من غير اعتبار وصف من الأوصاف فى
الدلالة ، ويشمل اسم الجنس اسم العين الذى يصلح باعتبار وضعه
لأن يصدق على كثير مثل : بحر واسد ، وما يصلح بعد التأويل
فيه لأن يصدق على كثير مثل : حاتم وقس وإسم المعنى الصالح
لأن يصدق على كثير كالنطق والفهم ، ولعلك تدرك أن الاستعارة
لا تجرى فى الأعلام الشخصية إلا فى تلك الأعلام التى تضمنت أوصافا
تعالمت واشتهرت بها وغلبت عليها ، حتى تنوسيت ذاتها ، وبذلك
تلحق بأسماء الأجناس التى تصلح لأن تصدق على كثيرين كحاتم
المتضمن الجود ، وقس المتضمن الفصاحة ، ومادر المتضمن البخل ،
وباقل المتضمن العى والفهاهة وذلك كله للوفاء بحق الاستعارة من ادعاء
دخول المشبه فى المشبه به(٤٦) .

٢ - الاستعارة التبعية :

قال تعالى : **(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)** (٤٧) فلفظ
« اصدع » مستعار للتبليغ بجامع التأثير فى كل منهما ، والقرينة
« بما تؤمر » وهو فعل لذا تسمى الاستعارة فيه تبعية .

وقال تعالى : **(ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا
علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين)** (٤٨)

---

(٤٦) انظر . البلاغة التطبيقية د. أحمد موسى ص : ١٢٨ ، وما بعدها .
(٤٧) سورة الحجر : ٩٤ .
(٤٨) سورة الأعراف : ٥٠ .

فذكر « أصحاب النار » دليل على أن لفظ « نادى » مستعمل فى غير معناه الحقيقى فهو فعل ماض والمراد به النداء فى المستقبل ، وقد استعير النداء فى الماضى للنداء فى المستقبل للدلالة على تحقق الوقوع ، ولما كان فعلا فإن الاستعارة تعد تبعية .

وقال تأبط شرا ، يصور شجاعته حيث زعم أنه قتل الغول :

فأضربها بلا دهش ، فخرت
صريعا لليدين وللجران

فقد دل السياق على أن المراد بأضربها ، ضربتها ـ وعلى ذلك فأضربها وهو فعل مضارع يدل على الحال أو الاستقبال مستعار لضربتها فى الماضى بجامع شدة الانكشاف والظهور فى كل منهما ، والاستعارة تبعية لأنها فى الفعل .

وقال شاعر يخاطب طائرا :

أنت فى خضراء ضاحكة
من بكاء العارض الهتن

فقد دلتنا كلمة « خضراء » وهى صفة لموصوف محذوف أى : جنة أو روضة خضراء على أن « ضاحكة » مستعار لتفتح الأزهار بجامع ظهور البياض فى كل منهما ، وهى مشتقة لأنها إسم فاعل لذا كانت الاستعارة تبعية ، كذلك دلتنا إضافة « البكاء » إلى « العارض الهتن » وهو السحاب الكثير الانصباب على أنها مستعارة لسقوط المطر بجامع الغزارة فى كل ، غير أنها جامدة وليست مشتقة ، لذا كانت فيها أصلية .

وقال آخـــــر :

ولئن نطقت بشكر برك مفصـحا

فلسان حالى بالشــكاية أنطـــق

فاسناد « أنطق » إلى ضمير « لسان حالى » أفادنا أنهـا مسـتعارة للدلالة بجـامع إيضــاح المعنى فى كل منهما ، وهى مشتقة لأنهـا أفعل تفضـيل ، فالاستعارة فيها تبعية وقال تعالى : **« ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجـداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنـا من بعثنا من مرقدنا ، هــذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون »(٤٩) .**

فقد مرت بك هــذه الآية فيما مضى ، وعرفت أن كلمـة « مرقدنا » مستعارة للمـوت بجـامع « خفاء الأثـر فى كل منهما » وبقرينة « بعثنا » وهى مشتقة لأنها اسم مكان . فالاستعارة فيها تبعية .

وقال تعالى : **« قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنـا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »(٥٠)** استعمال حرف الجـر « فى » مـع « ضـلال مبين » يدلنا على أن « على » مستعمل فى غير معنـاه الحقيقى ، « ففى » للظرفية « وعلى » للاستعلاء ولذلك خولف بين حـرفى الجـر فى التعبيرين ، ووضعت « على » مكان « فى » لأن صاحب الحـق كأنه مستعل على فرس جـواد يركض به حيث شـاء ، وصاحب الباطل كأنه منغمس فى ظلام منخفض فيــه ، لا يدرى أين يتوجه فتأمل هذه الدقة وتلك البـلاغة التى لا تتمثل إلا فى كلام رب العـزة ، ولمـا كانت اللفظـة المستعارة حـرفا فإن الاستعارة تعـد تبعيــة .

---

(٤٩) سـورة يس : ٥١ ، ٥٢ .
(٥٠) سـورة سـبأ : ٢٤ .

ومن ذلك قوله تعالى : (**إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**) (٥١) فقد يتساءل : لماذا عدل عن « اللام » إلى « فى » فى الأربعة الأخيرة ؟ ورد « ابن الأثير » على ذلك بأنه للايذان بأنهم أرسخ فى استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره باللام لأن « فى » للوعاء فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، كما يوضع الشيء فى الوعاء ، وأن يجعلوا مظنة لها ، وذلك لما فى فك الرقاب وفى الغرم من التخلص ، وتكرير « فى » فى قوله « **فى سبيل الله** » دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين ، وسياق الكلام أن يقال : وفى الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل ، فلما جيء بفى مرة ثانية وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل الله علم أن سبيل الله أوكد فى استحقاق النفقة فيه(٥٢) .

فتأمل هذه اللطائف وتلك الدقائق التى كان سببها استعمال حرف مكان آخر والاستعارة فيه تبعية لأنها فى الحرف .

وقال تعالى : « **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** »(٥٣) عرفت أن « فى » للظرفية ، والجذوع لا تصلح أن تكون ظرفا للمصلوبين ، فكان الظاهر أن يقال : « على جذوع النخل » ، ولكن يدل على تمكن الجذوع من المصلوبين كتمكن الظرف من المظروف وضع « فى » موضع « على » فالاستعارة فيه تبعية .

---

(٥١) سورة التوبة : ٦٠ .
(٥٢) أنظر : المثل السائر ٢٤١/٢ .
(٥٣) سورة طه : ٧١ .

وقال ابو نواس :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة
فلقد علمت بان عفوك اعظم

عرفت أن القريب ينادى بالهمزة وأى وأن البعيد ينادى باليـاء وأيا وهيا وغيرها عند الكلام على الأساليب الانشائية ، وتسال فيقال لك : هل الله بعيد عنا فنناديه بيا ، والإجابة إن ذلك لمحظ بلاغى هو : الدلالة على عظمة المولى عز وجل ورفعة منزلته ، تنزيلا لبعد منزلته منزلة البعد فى المسافة ، فوضعت « يا » موضع الهمزة لتحقيق هذا الاعتبار على سبيل الاستعارة التبعية .

وقال الشاعر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا
بأنكم فى ربع قلبى سكان

النداء بالهمزة وإن كانوا بعيدين عنه ، للدلالة على أنهم دائما فى قلبه لا يغيبون عن خاطره ، فاستعيرت الهمزة من معناها الحقيقى وهو نداء القريب لنداء البعيد تحقيقا لهذا القصد على سبيل الاستعارة التبعية .

فالاستعارة فى كل ما مضى من المشتقات والحروف تبعية ، وسميت الاستعارة فى الأفعال والمشتقات تبعية ، لأن الاستعارة فيها تابعة للاستعارة فى معانى مصادرها وسميت تبعية فى الحروف لأن الاستعارة فيها تابعة للاستعارة فى متعلقات معانيها .

وخلاصة ما مضى ان اللفظ المستعار إن كان اسم جنس بان كان إسم عين وضعا أو تاويلا او إسم معنى فإن الاستعارة فيه اصلية ، وإن كان مشتقا : فعلا ماضيا او مضارعا او امرا أو إسم فاعل او مفعول

او صفة مشبهة او افعل تفضيل او اسم آلة او اسم زمان او مكان أو حرف معنى مثل من وفى ويا والهمزة واللام فإن الاستعارة فيه تبعية . وكانت الاولى اصلية لانها تجرى فى نفس المستعار . وكانت الثانية تبعية لانها فى الفعل والمشتقات تجرى أولا فى الحدث (المصدر) ثم يتبع ذلك الفعل والمشتق .

وفى الحرف تجرى أولا فى معنى الحرف الكلى ثم يتبع ذلك الحرف المستعار .

الاستعارة التصريحية والمكنية :

قال المتنبى وقد قابله ممدوحه وعانقه :

فلم ار قبلى من مشى البحر نحوه
ولا رجلا قامت تعانقه الأسد

فالبحر والاسد مستعاران للكريم والشجاع للمبالغة فيهما بقرينة : مشى ، وتعانقه والمشبه كما ترى محذوف ، والموجود معنا هو المشبه به فى كلتا الاستعارتين لذا تسمى الاستعارة تصريحية للتصريح بلفظ المشبه به . أصلية ، لان المستعار اسم وقال فى مدح سيف الدولة :

اما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللمم(٥٤)

فاسناد تصافحت إلى « بيض الهند واللمم » دلنا على أنها مستعملة فى غير معناها الحقيقى وان المراد بها التلاقى بجامع المشابهة ، فاستعير

---

(٥٤) بيض الهند : السيوف ، واللمم : جمع لمة ، وهى الشعر المجاور شحمة الاذن ، والمراد بها هنا الرؤوس اى : إنك لا تعد الانتصار جميلا إلا بعد معركة تتلاقى فيها السيوف بالرؤوس .

التصافح للتلاقى ، واشتق منه « تصافحت » بمعنى تلاقت على سبيل الاستعارة التصريحية للتصريح بالمشبه به « تبعية » لأنها فى الفعل .

فالاستعارة التصريحية : ما صرح فيها بلفظ المشبه به وتكون أصلية إن كان المستعار اسما كما فى المثال الأول ، وتبعية إن كان مشتقا كما فى المثال الثانى .

الاستعارة المكنية

وقال المتنبى فى مدح سيف الدولة :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفى أذن الجوزاء منه زمازم(٥٥)

أى أن هذا الجيش لكثرته ملأ الشرق والغرب ، وبلغت أصوات جنده المسافات البعيدة حتى وصلت إلى الجوزاء ، فمعروف أن الجوزاء لا أذن لها مما يدل أن فى الكلام تجوزا وأنه أراد التعبير عن قصده تشبيه الجوزاء بإنسان ثم حذف المشبه به وأثبت للمشبه خاصية من خواصه وصفة من صفاته ، وهى الأذن وإثبات الأذن للجوزاء قرينة على أنها مستعملة فى غير معناها الحقيقى ، وتلاحظ أن المشبه به محذوف وأن الموجود هو المشبه ومعه لازم من لوازم المشبه به لذا فإن الاستعارة فيه تسمى استعارة مكنية .

وقال أيضا : ولما قلت الإبل امتطينا

إلى ابن أبى سليمان الخطوبا

---

(٥٥) الخميس : الجيش لأنه خمس فرق وهى : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساقة ، الزحف : التقدم ، الجوزاء : برج فى السماء ، الزمازم ، جمع زمزمة والمراد بها هنا : صوت لا يفهم لتداخله .

أى أن الخطوب والأحداث كانت له دواب فى الوصول إلى الممدوح حين عزت عليه الإبل .

وذكر « امتطينا » واسناده إلى « الخطوب » يفيد أن فى الكلام تجوزا لأن الخطوب لا تركب ، وأنه شبه الخطوب بالإبل ثم حذف المشبه به ودل على حذفه بذكر خاصية من خواصه واثباتها للمشبه وهى « امتطينا » ولما كان المشبه به محذوفا فإن الاستعارة فيه مكنية .

وقال الحجاج فى إحدى خطبه : إنى لأرى رؤوسا قد اينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها فذكر « اينعت » وحان قطافها يفيد أن فى الكلام تجوزا ، وأنه أراد أن يبالغ فى استحقاق هؤلاء الخارجين عليه للعقوبة ، وأن الوقت قد حان للأخذ على أيديهم فشبه رؤوسهم بالثمار ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو « اينعت وحان قطافها » ، وإثبات ذلك للمشبه تخييل أو استعارة تخييلية وهى قرينة المكنية . والاستعارة تسمى مكنية .

ومن الاستعارة المكنية كذلك قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة
إذ اصبحت بيد الشمال زمامها(٥٦)

يفتخر بأنه يمنع عادية البرد عن الناس بإطعامهم ، وإيقاد النار لهم ، لأن ذلك وقت الجدب عندهم ولذلك جعل للشمال يدا ، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حسيا أو عقلا تجرى اليد عليه ، كاجراء الأسد على الرجل الشجاع ، ولكن لما شبه الشمال لتصريفها القرة على حكم طبيعتها فى التصريف بالإنسان المصرف لما زمامه بيده أثبت

(٥٦) القرة : البرد ، والشمال : أبرد الرياح .

لها يدا على سبيل التخييل مبالغة فى تشبيهها به ، وحكم الزمام كذلك فى استعارته للقرة حكم اليد فى استعارتها للشمال ، فجعل للقرة زماما ليكون أتم فى اثباتها مصرفة كما جعل للشمال يدا ليكون ابلغ فى اثباتها مصرفة ، فوفى المبالغة حقها من الطرفين ، والموجود من اركان الإستعارة في كل هو المشبه لذا فإن الاستعارة مكنية .

ولا يخفى عليك بعد ما سبق تبين الفرق بين الاستعارة التصريحية والمكنية ، فالتصريحية ما صرح فيها بلفظ المشبه به وكانت قرينتها لفظية . فعلا أو فاعلا . أو مفعولا أو مجرورا أو حالية تفهم من سياق الكلام ، وكانت عملية التشبيه فيها ظاهرة وواضحة لا تحتاج إلى صعوبة فى الوقوف عليها ؛ والمكنية ما حذف منها المشبه به وبقى المشبه ، وأن قرينتها فى إثبات لازم المشبه به للمشبه . وعملية التشبيه فيها تتسم فى لطف وخفاء بحيث تحتاج إلى معاناة وتعب فى الوقوف عليها لذا سميت استعارة مكنية وكانت اكثر بلاغة من التصريحية لما تستوجبه من مجهود فكرى وذهنى فى تأملها والإحساس بروعتها .

فاتضح إذا اتضاحا لا يدع للشك مجالا وجه التفرقة بينهما .

وقد عرفت أن قرينة المكنية هى إثبات لازم المشبه به للمشبه ، وهذا الأمر المختص بالمشبه به المثبت للمشبه منه ما لا يكمل وجه الشبه فى المشبه به بدونه ، كما فى قول أبى ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع(٥٧)

---

(٥٧) المنية : الموت — انشبت : علقت ، الفيت : وجدت ، والتميمة : خرزة يجعلونها معاذة من العين والجن .

فإنه شبه المنية بالسبع فى اغتيال النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ولا رقة لمرحوم ، ولا بقيا على ذى فضيلة ، فاثبت للمنية الاظفار التى لا يكمل ذلك فى السبع بدونها تحقيقا للمبالغة فى التشبيه ، ومنه ما به يكون قوام وجه الشبه فى المشبه به كما فى قول الآخر :

ولئن نطقت بشكر برك مفصحا
فلسان حالى بالشكاية انطق

فقد شبه الحال الدالة على المقصود بإنسان يتكلم ، واثبت لها اللسان الذى به قوام الدلالة فى الإنسان(٥٨) .

الاستعارة التبعية يمكن ردها إلى المكنية :

عرفت فى قوله تعالى : **(ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) (٥٩)** ان فى قوله « سكت » استعارة تصريحية تبعية بقرينة « الغضب » حيث شبه انتهاء الغضب بالسكوت بجامع الهدوء المترتب على كل منهما ثم استعار المشبه به للمشبه واشتق منه : « سكت » بمعنى انتهى على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ويجوز أن تكون الاستعارة مكنية وموطنها قرينة التصريحية التبعية ، فيقال : شبه « الغضب » بإنسان وحذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو : « سكت » وإثبات السكوت للغضب تخييل او استعارة تخييلية وهى قرينة المكنية .

---

(٥٨) انظر : بغية الايضاح ص ١٥٤ وما بعدها .
(٥٩) سورة الأعراف : ١٥٤ .

وكذا يجوز أن تجعل كل استعارة تبعية مكنية ويكون موطنها قرينة التبعية هذا من حيث الجواز ، لكن الأنسب هو ما يقتضيه المقام ويستدعيه الحال ، ولا شك أن الأنسب بالمقام فيما سبق هو المبالغة فى انتهاء الغضب وتشبيهه بالسكوت الذى تدل عليه التصريحية التبعية . لذا كانت هى الأولى والأليق .

الاستعارة المطلقة والمجردة والمرشحة :

علمت أن مبنى الاستعارة على تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه واحد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ، فكل ما يذكر فى الأسلوب الذى وردت فيه الاستعارة مما يقوى هذا الأساس ويدعمه فإنه يعد مقويا لأمر الاستعارة وناصرا لها ، وكل ما يقلل من الاتحاد ويضعف من شأنه فإنه يعد فى غير صالح الاستعارة ، وبالتأمل فى الأساليب التى وردت فيها الاستعارة نراها قد تقترن بما يقوى هذا الأساس مما يلائم المستعار منه وتسمى الاستعارة آنذاك مرشحة ، وقد تقترن بما يضعف هذا الأساس مما يلائم المستعار له وتسمى الاستعارة حينئذ مجردة ، وقد لا تقترن الاستعارة بشيء يلائم المستعار منه أو المستعار له وتسمى مطلقة ، وتلقيب الاستعارة بلقب من الألقاب السابقة لا يكون إلا بعد استيفائها للقرينة ، لأن القرينة كما علمت من تمام الاستعارة .

الاستعارة المطلقة :

قال تعالى : (**إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية**) (٦٠) فى الآية استعارة تصريحية تبعية فى « طغى » فقد شبه الفيضان بالطغيان بجامع مجاوزة الحد فى كل ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد

---

(٦٠) سورة الحاقة : ١١ .

من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ثم استعير المشبه به للمشبه واشتق منه « طغى » بمعنى : جاوز الحد على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة هى « لفظ » « الماء » الذى وقع فاعلا للفعل الذى وردت فيه الاستعارة ، ولم تقترن هذه الاستعارة بشىء يلائم المستعار منه أو المستعار له لذا كانت الاستعارة مطلقة .

وقال قريط بن أنيف :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم

طاروا إليه زرافات ووحدانا(٦١)

يصفهم بالإقدام على المكاره والإسراع إلى الشدائد دون أن يتكل بعضهم على بعض ، فقد شبه الشر بالسبع بجامع حصول الضرر فى كل ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ، وحذف المشبه به وأشار إليه بشىء من لوازمه وهما : الناجذان وإثبات الناجذين للشر تخييل أو استعارة تخييلية وهى قرينة المكنية ، والاستعارة مطلقة لعدم اقترانها بعد استيفاء القرينة بشىء ملائم للمستعار له أو المستعار منه .

وفى : طاروا كذلك استعارة تصريحية تبعية مطلقة .

وقال الشاعر :

سقاك وحيانا بك الله إنما

على العيس نور والخدور كمائمه(٦٢)

---

(٦١) الناجذان : النابان .

(٦٢) العيس : الإبل البيض التى يخالط بياضها شىء من الشقرة واحدها أعيس والأنثى عيساء ، النور الزهر أو الأبيض منه : الخدور جمع خدر وهو الستر ، الكمائم : جمع كمامة ، وهى غطاء النور .

فإنه يدعو لمحبوبته بالسقيا، وأن يحيا الناس بها كما يحيون بالأزهار .

وفى كلمة « نور » استعارة تصريحية أصلية بقرينة « على العيس » فقد شبه النساء الجميلات بالنور بجامع الحسن فيهما ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ثم استعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وبعد أن تمت الاستعارة بذكر القرينة اتبعت بلفظين أحدهما يلائم المستعار له وهو : الخدور الذى يناسب النساء والآخر يلائم المستعار منه وهو « الكمائم » الذى يناسب النور ، فاجتمع الترشيح والتجريد فكانت الاستعارة فى حكم المطلقة لتعارضهما فكأنهما لم يذكرا .

فالاستعارة المطلقة تصريحية أو مكنية ، ما لم تقترن بعد استيفائها القرينة بما يلائم واحدا من ركنى الاستعارة ، أو قرنت بما يلائمهما معا .

الاستعارة المجردة :

قال تعالى : « **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** »(٦٣) ففى كلمة « لباس » استعارة تصريحية أصلية ، فقد شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس بجامع الاشتمال والإحاطة فى كل منهما والقرينة هى إضافة اللباس إلى الجوع والخوف . وقوله : « فأذاقها » يلائم المستعار له ، لأن المراد بالإذاقة هو إصابتهم بما استعير له اللباس وهو المضار والآلام التى

---

(٦٣) سورة النحل : ١٢ .

تترتب على الجــوع والخــوف ، فالإذاقة بهذا المعنى تلائم المستعار له ، واستعمال الإذاقة فى الإصــابة كما ذكر الزمخشرى : استعارة جــرت مجــرى الحقائق ، لشيوعها فى البــلايا والشدائد ، حيث يقولون : « ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب »(٦٤) ولو أنه سلك بالاستعارة هنا مسلك الترشيح لقيــل : فكساها الله لباس الجوع والخــوف ، لأن الكسوة ملائمة للباس ، وأوثر التجــريد على الترشيح ــ مع أن الترشيح أبلغ ، لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس ، ففى التعبير بالإذاقة اشــعار بشدة الاصــابة بخــلاف التعبير بالكسوة .

وقال الشــاعر :

فإن يهلك فكل عمود قــوم   من الدنيــا إلى هلك يصــير

ففى كلمة « عمود » استعارة تصريحية أصلية ، فقد شــبه رئيس القــوم بالعمود بجامع التحمل والقيــام بأهم الأمور فى كل ، ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه واستعير المشبه به للمشبه على ســبيل الاستعارة التصريحية الأصــلية والقرينة « يهلك » وقــد تليت الاستعارة بما يضعف من الأساس الذى بنيت عليــه وهو قوله : « إلى هلك يصــير » الذى يلائم المستعار له ومن ثــم كانت الاستعارة مجــردة .

وقال كثير عــزة :

غمــر الرداء إذا تبســم ضــاحكا
غلقت لضحكته رقــاب المــال(٦٥)

---

(٦٤) انظر : بغية الايضاح ٣/١٤٠ ، ١٤١ .
(٦٥) غلقت : تمــكنت .

فالرداء وهو الثوب مستعار للمعروف على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، لأن المعروف يصون عوض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه ، وقوله : « تبسم ضاحكا » قرينة على ذلك والمراد منه : أن تبسم الممدوح كافه فى إيصال المال إلى العفاة والسائلين ، وتمكنهم منه ، بحيث لا ينفك من أيديهم ، كما لا ينفك الرهن من يد المرتهن إذا حل اجل الدين وتعذر الوفاء ، وقوله : « غمر » أن أريد به كثير من غمر الماء أى كثر فيكون تجريدا لأنه مما يلائم المستعار له ، وإن أريد به الاتساع من قولهم : ثوب غامر أى واسع فيكون ترشيحا لأنه مما يلائم المستعار منه .

وقال البحترى :

يؤدون التحيـة من بعيـد

إلى قمر من الإيوان بـاد(٦٦)

ففى لفظ « قمر » استعارة تصريحية أصلية ، فقد شبه به الممدوح بجامع البهاء والتلألؤ فيهما والقرينة : يؤدون التحية ، وقوله « من الإيوان باد » يلائم المستعار له فهو تجريد .

فالاستعارة المجردة كما رأيت ما قرنت بما يلائم المستعار له بعد استيفائها القرينة وسميت مجردة لتجريدها الاستعارة عن الأساس الذى تعتمد عليه وهو تناسى التشبيه وادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه .

---

(٦٦) الايوان : البناء الضخم العظيم .

الاستعارة المرشحة :

قال تعالى : **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)** (٦٧) فى الآية الكريمة استعارة تصريحية تبعية فى لفظ : اشتروا ، فقد شبه اختيار الضلالة على الهدى بالاشتراء بجامع الترك فى كل ، ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه واستعير الاشتراء للاختيار واشتق منه « اشتروا » بمعنى « اختاروا » على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة ايقاع الاشتراء على الضلالة ، وقد قرنت الاستعارة بعد استيفاء القرينة بما يفيد المبالغة فى تناسى التشبيه وما يلائم المستعار منه وهو « فما ربحت تجارتهم » لذا كانت الاستعاره مرشحه اى قوية .

وقال الشاعر :

ينازعنى ردائى عبد عمر
رويدك يا اخا عمرو بن بكر
لى الشطر الذى ملكت يمينى
ودونك فاعتجر منه بشطر(٦٨)

ففى قوله : ردائى : استعارة تصريحية أصلية . فقد شبه السيف بالرداء بجامع الحفظ والصون فى كل ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه واستعار الرداء للسيف على

---

(٦٧) سورة البقرة : ١٦ .
(٦٨) رويدك : إسم فعل بمعنى أمهل ، بكر : ابو قبيلة ، الشطر : النصف ، دونك : اسم فعل بمعنى خذ ، اعتجر ، من الاعتجار ، وهو لف الرأس بثوب ونحوه ، والمراد بالشطر الذى ملكته يمينه : مقبض السيف ، وبالشطر الآخر : صدره .

سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية والقرينة يدل عليها السياق فهى حالية ، وقد قرنت الاستعارة بما يقوى أمرها ويؤكد تناسى التشبيه الذى بنيت عليه وهو « اعتجر » لأن الاعتجار هو لف الراس بثوب ونحوه فهو ملائم للمستعار منه وبذا أصبحت الاستعارة مرشحة .

التجريد ثم الاطلاق ثم الترشيح :

ولما كان التجريد مضعفا لتناسى التشبيه الذى تبنى عليه الاستعارة كان فى المرتبة الأدنى ، يليه الإطلاق حيث تذكر فيه الاستعارة غير متبوعة بما يقويها أو يضعفها ، أو تتبع بواحد من هذا وواحد من ذاك فتكون فى حكم المطلقة وفى مرتبتها ، تأتى بعد ذلك الاستعارة المرشحة فهى فى المرتبة الأعلى لأن الترشيح يلتقى مع الأساس الذى قامت عليه الاستعارة فيشد أزرها ويقوى أمرها ، إذ يزيد من تناسى التشبيه ، ويخيل لسامع أن المستعار مستعمل فى حقيقته وأن التشبيه لم يجر ببال ومن ذلك عدا ما سبق قول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة فى السماء

فقوله : حتى يظن الجهول .... أكدت أن الصعود المستعار لعلو قدر الممدوح حقيقة وأن أمر التشبيه بعيد .

وقال أبو الطيب المتنبى :

كبرت حول ديارهم لما بدت

منها الشموس وليس فيها المشرق

فقد استعار الشموس للممدوحين بجامع الرفعة والبهاء والقرينة « بدت » واتبع الاستعارة بما يقوى أمرها ويوهم أنها شموس حقيقية حيث تطلع من جهة المغرب لا من جهة المشرق .

ومن ذلك قول : ابن العميد فى غلام حسن قام على راسه يظلله من الشمس :

قامت تظللنى من الشمس
نفس اعز على من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب
شمس تظللنى من الشمس

فقد استعار الشمس للممدوح ، ثم ذكر ما يعين على تناسى التشبيه ويوهم ان المستعار مستعمل فى حقيقته وهو قوله : ومن عجب ، فزاد الاستعارة قوة واكسبها بعدا .

وينبغى الا يغيب عن خاطرك ان علو الاستعارة المرشحة ودنو الاستعارة المجردة إنما يتصل بالمقال الذى وردتا فيه ويتعلق بالمقام الذى ذكرت فيه كل منهما ، فالمرشحة تفوق المجردة إذا كانت مناسبة للمقام الذى وردت فيه ، والمجردة تكون اكثر بلاغة إذا كان المقام لها ، ولذلك كان التجريد فى قوله تعالى : **(فاذاقها الله لباس الجوع والخوف)** ابلغ من الترشيح لانه اكثر تلاؤما واشد تناسبا ، إذ ان التعبير بالإذاقة يفيد الإشعار بشدة الإصابة بخلاف التعبير بالكسوة ، وكذا جميع استعارات القرآن الكريم وردت كل منها فى مكانها وصادفت موقعها وناسبت الحال التى ذكرت فيها ، فلم تأت عن تكلف ولم تنشأ عن تصنع ولم يتعمل فى نسجها كما يكون بعض الاستعارات فى غير القرآن ، ولذلك كان لها الاثر البلاغى المشهود الذى احسست بروعته واستشعرت جماله فى كثير من الاستعارات القرآنية السالفة ، فالاستعارة فى القرآن

كما قرر « عبد القاهر » من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون(٦٩) .

الاستعارة التهكمية :

قال تعالى : (**فبشرهم بعذاب اليم**) (٧٠) معروف ان التبشير من البشارة وهى الإخبار بما يسر ، فتعلقه بالعذاب يفيد انه مستعمل فى غير معناه الحقيقى لإفادة التهكم والاستهزاء بالكفار وشدة العذاب الذى يقع من الله عليهم ، فيقال : شبه الانذار بالتبشير بجامع الأثر المترتب على كل منهما ، ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ، واستعار التبشير للإنذار ، واشتق منه : « بشرهم » بمعنى أنذرهم على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية التهكمية ، والقرينة الدالة على ذلك هى : عذاب اليم ، وإذا كانت الاستعارة تزيد المعنى حسنا وتكسبه جمالا كما علمت فإن ملاحظة هذه الأمور الدقيقة وتصوير الاستعارة لها مما يزيد من جمالها ويرفع من حسنها لذا كانت هذه الاستعارة كما رأيت فى أعلى المراتب الفنية والأدبية .

وتستخدم هذه الاستعارة بكثرة فى مجال التهكم والتلميح وفى الأحاديث الدارجة . كما يقال لأحد الذين يهملون فى عملهم : اذهب إلى الرئيس ليكافئك أو يسلم عليك ومن ذلك قول كعب بن زهير :

صبحنا الخزرجية مرهفات

أباد ذوى أرومتها ذووها (٧١)

---

(٦٩) انظر : دلائل الإعجاز ص ٣٥٨ .

(٧١) صبحنا : قال له : عم صباحا ، أو سقاه الصبوح وهو ما حلب من اللبن ، الخزرجية : نسبة إلى الخزرج وهى من قبائل يثرب ، المرهفات : السيوف الدقيقة القاطعة ، الأرومة : الأصل .

(فصبحنا) مستعارة للضرب استعارة تصريحية تبعيـة والقرينـة (مرهفات) ، لأن الصبح بمعناه الحقيقى وهو تحيـة الصباح أو تقديم الصبوح لا يقـع على السيوف ، فيـدل ذلك على أن المـراد بـه الضرب على سبيل التهكـم بهـم .

وقال الشـاعر :

واقـرى الهمـوم الطـارقات حزامة

إذا كثرت للطـارقات الوسـاوس

اى : إذا لم يستطع غيرى من الناس مواجهة المصاعب ومقابلـة النوائب فإنى اقابلهـا بحـزم والقـاها بعـزم ، ففى (أقـرى) استعارة تصريحية تبعيـة تهكمية فقد شبه مقابلة الهمـوم بالأقـراء وهو إكـرام الضيف بجامـع ما يترتب على كل منهما واستعار الإقراء لمواجهـة الهموم واشتق منه : (اقرى) بمعنى أواجه على سبيل الاسـتعارة التصريحية التبعية التهكمية والقرينة الطارقات وحزامـة .

الاستعارة التمثيلية :

مـر بـك عند الكلام على التشبيه أن منه التشبيه المفـرد كقولك: محمد كالبحر عطـاء والتشبيه التمثيلى الـذى يكون الوجه فيه هيئـة منتزعة من متعدد حسـيا كان ذلك أو عقليـا على الـرأى الراجح فى التشبيه التمثيلى وهو رأى الخطيب القزوينى كقـول الله تعالى فى وصف أحبار اليهـود الـذين قـرأوا التـوراة وحفظوها ولم يعملوا بما فيها ولا انتفعوا بآياتهـا : « **مثل الـذين حمـلوا التـوراة ثم لـم يحملوها**

كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الـذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القـوم الظالمـين »(٧٢) فالمشبه ليس اليهود فقط ، ولكنه مؤلف من اليهود الذين قرأوا التوراة وحفظوها ولم يعملوا بما فيها ولا انتفعوا بآياتهـا والمشـبه بـه ليس الحمـار فقط ولكنـه مركب من الحمـار يحمل اسفارا هى كنـز العـلم ومستودع المعرفـة ولا حظ لـه منهـا إلا الكـد والتعب ووجه الشـبه هو الهيئة الحاصـلة من تحمل التعب وبذل المشـقة فى استصحاب الشىء مع الجهل بـه .

وفى قـول بشـار :

كأن مثـار النقـع فـوق رؤوسـنا

واسـيافنا ليـل تهـاوى كواكبـه

تجد التشبيه مركبا لا يصح فيه تشبيه كل جـزء من طرفيه بمـا يقابله من الطـرف الآخـر حيث لا يتم المعنى ولا يكتمـل وجه الشـبه بذلك فـلا يستقيم تشبيه الغبار المثـار بالليـل والأسياف بالكواكب ، وإنما يتحقق التشـبيه ويتم بتشبيه الغبار المعقود فـوق رؤوس المتحاربين فى ميدان القتـال وقـد لمعت فيه السيوف او الاسـنة بالليل المظـلم الـذى تتهـاوى كواكبه . ووجه الشـبه هو الهيئة الحاصلة من تهاوى اشـياء مشرقة مستطيلة بيض فى جوانب شىء مظلم اسود .

كما عرفت أن التشبيه التمثيلى من التشبيهات البعيدة الغريبة التى تحتاج إلى تعب فى الإحساس بجمالها وروية فى الوقوف على بلاغتهـا لإجتماع سببى البعد فيه وهما : كثرة التفصيل فى وجه الشـبه ونـدرة تكـرار المشـبه بـه على الحواس .

---

(٧٢) سورة الجمعة : ٥ .

عرفنا كذلك عند الكلام على المجاز المرسل ان منه المفرد كقوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح عليه السلام « **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا** »(٧٣) فاصابعهم مجاز مرسل علاقته الكلية والمراد الانامل وسر التجوز بالاصابع كما علمت هو المبالغة فى سدهم عن دعوته وعدم إستجابتهم لأوامر الله وبلوغهم فى ذلك الغاية لدرجة انهم لو أمكنهم ان يدخلوا اصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا من كلامه حرفا واحدا لما ترددوا فى ذلك .

ومنه المركب كالخبر حينما يراد به غير مقصديه الأساسيين من الفائدة ولازم الفائدة كالتحسر والتحزن مثلا فى قول الشاعر :

هواى مع الركب اليمانين مصعد

جنيب وجسمانى بمكة موثق

فيفهم من الخبر ان هواه وتعلقه بالأحبة الذين رحلوا وإن كان جسمه بمكة ، لكنه يريد إظهار التحسر والتحزن على مفارقة الأحبة.

وكذلك من المجاز المرسل المركب استعمال الإنشاء فى الخبر كقوله ﷺ : « **من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار** » فقوله : فليتبوأ مضارع مقرون بلام الأمر ، فهو امر بالتبوأ لكن الغرض منه الإخبار بحصول التبوء فعلا لمن يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ .

ولاعتماد الاستعارة على التشبيه كما علمت فإنها تجىء مثله مفردة ومركبة ومثل المجاز المرسل كذلك إذ يتفقان فى ان كلا منهما مجاز لغوى،

---

(٧٣) سورة نوح : ٧ .

والاستعارة فيما مضى من الأمثلة كانت فى الألفاظ المفردة سواء أكانت تصريحية أم مكنية ، فهى استعارة مفردة ، فلنعرض الآن للاستعارة التى تتعلق بالتركيب ، فلا تقتصر على لفظ ولا تتمثل فى كلمة بعينها ، وهى ما تعرف بالاستعارة التمثيلية .

من ذلك قوله تعالى : « **والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه** »(٧٤) فقد شبه الأرض فى تصرفها بأمر الله تعالى وقدرته بالشيء يكون فى قبضة الآخذ له منا والجامع يده عليه ، ثم تنوسى التشبيه وادعى أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ، واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، وكذا قوله تعالى : (والسماوات مطويات بيمينه) شبهت السماوات فى جمعها والتئامها استجابة لأمر الله تعالى بالكتاب المطوى بيمين الإنسان، واستعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية وخص اليمين، لأنها أشرف اليدين وأقواهما ، والتى لا غناء للأخرى دونها ، فلا ينهض إنسان لشيء إلا بدأ بيمينه فهيأها لنيله ، ومتى قصد جعل الشيء فى جهة من العناية جعل فى اليد اليمنى ، ومتى قصد خلاف ذلك جعل فى اليسرى كما قال ابن ميادة :

ألم اك فى يمنى يديك جعلتنى

فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

أى كنت مكرما عندك فلا تجعلنى مهانا ، وكنت فى المكان الشريف منك، فلا تحطنى فى المنزل الوضيع(٧٥) .

---

(٧٤) سورة الزمر : ٦٧ .
(٧٥) انظر : بغية الإيضاح ص : ١٤٨ .

ومن ذلك ما كتب بـه الوليـد بن يزيد لمـا بويع بالخلافـة إلى مروان بن محمد وقـد تلكأ فى البيعة لـه : (أما بعد : فإنى أراك تقـدم رجـلا وتؤخـر أخـرى ، فإذا أتـاك كتـابى هـذا فإعتمد على أيهما شئت والسـلام) فقد شـبه صـورة تردده فى المبايعة بصـورة من هـم لقضاء أمـر من الأمـور فتارة يريد المضى فيتحرك وتـارة لا يريد فيظل واقفـا وتنوسى التشـبيه وادعى أن المشـبه فـرد من أفـراد المشبه بـه وداخل فى جنسـه ثم استعار هيئة المشبه بـه للمشـبه على طريق الاستعارة التمثيلية .

وبذلك تدخل الأمثال فى دائرة الاستعارة التمثيلية : والمثل : قـول شـبه مضربـه بمورده ، وهى لا تغير كقولهم : (أحشفا وسـوء كيلة) فهو يضـرب لمن يظلم النـاس من جهتين ، فقد شبـه فيـه هيئة من يظلم من جهتين بهيئة رجل اشترى من آخـر حشـفا(٧٦) بتطفيف فى الكيل ثم استعير المشبه بـه للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية .

وكقولهم : (فـلان ينفخ فى غـير فحم ، ويخط على المـاء) وهو يضرب لمن يتعب نفسـه فى غير ما جدوى وبدون ما فائدة . وكقولهم : (قبل الرماء تمـلا الكنائن)(٧٧) وهو يضرب لمن يريد تحقيق أمـر بدون أن يعد لـه عدتـه . فترى أن الاستعارة فيما مضى تمثلت فى مجمـوع التركيب لا فى لفظة بعينها أو كلمـة على إنفرادهـا ولذلك سـموها : الاستعارة التمثيليـة وعرفهـا الخطيب القزوينى : بأنهـا اللفظ المركب المستعمل فيما شـبه بمعناه الأصلى تشبيه التمثيل للمبالغـة فى التشبيه، أى تشبيه إحـدى صورتين منتزعتين من أمـرين أو أمـور بالأخرى ثم

(٧٦) ردىء التمـر .
(٧٧) الرماء : رمى السهام : الكنائن : جمع كنانة وهى وعاء السهام .

تدخل المشبهة فى جنس المشبه بهـا مبالغـة فى التشـبيه فتذكر بلفظها من غـير تغيير بوجه من الوجـوه(٧٨) .

والاستعارة التمثيلية كالتشبيه التمثيلى فى كون الشـبه منتزع من أمـور متعددة قـد قـرن بعضها إلى بعض ، وإن اردت بيانـا اكـثر وتمييزا اوضـح لإظهار الفـرق بـين الاستعارة التمثيلية والمفردة فإليك ما ذكـره إمام البلاغـة (عبد القاهر) فى أسرار البلاغـة حـول ذلك ، إذ بـين أن قـول داود بن على (الآن اخـذ القوس باريها) — وإن كان القوس يقـع كناية عن الخـلافة والبارى عن المستحق لهـا ، فإنـه لا يجـوز أن يقـال : إن القوس مستعار للخلافـة ... وإنما الشـبه مؤلف بحال الخـلافة مع القـائم بهـا ومن حال القوس مـع الـذى براها ، وهو أن البارى للقوس اعـرف بـكل ما يصلحها ، وأن المستحق للخـلافة اهدى إلى القيـام بحقوقها واعـرف بأسرارها .. وهكذا قول القـائل وقد سـمع كلاما حسنا من رجل دميم : (عسل طيب فى ظرف سوء) لم يقصـد فيـه إلى بيان حال اللفظ الحسن وتشبيهه بالعسـل فى هـذا الكلام الحسن من المتكلم المشنوء فى منظره ، وإنما قصد إلى قياس إجتماع فضـل المخبر ، مـع نقص المنظـر بالشـبه المؤلف من العسل والظرف(٧٩) .

وقد علمت أن التشبيه التمثيلي ادخل فى البلاغـة وامعن فى البعد والغرابـة لمـا يتطلبه من إعمال الفكـر وكـد الذهن التى يسـتوجبها دقـة التفصيل فى وجـه الشبه فيـه ونـدرة تكرار المشبه بـه على

---

(٧٨) راجع : بغية الإيضاح .
(٧٩) انظر : اسرار البلاغة ص : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

الحواس ، والاستعارة التمثيلية كذلك أكثر بلاغة والطف بيانا وأدق براعة لكثرة التفصيل التى تتطلب جهدا فى لم شتاتها وضم أجزائها والوقوف على الغرض منها .

بلاغة الاستعارة :

قال تعالى : « **فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشه راضية** »(٨٠) اسند راضية إلى ضمير عيشة وذلك غير ما حقه أن يسند إليه ، لأن العيشة يقع عليها الرضا لا منها ، والرضا إنما يكون من صاحب العيشة ، وكان هذا التجوز فى الإسناد للمبالغة فى رضا هذا الذى ثقلت موازينه ومدى ما يحسه من بهجة وسرور ، ولم تكن لتتم تلك المبالغة بدون هذا التجوز الذى كانت المبالغة ثمرة من ثماره الثانية فهى الإيجاز الذى افاده التجوز فالقول الكريم أوجز من قولنا : فقد اصبح يحيا وهو فى غاية الرضا ، وقد عرفت أن هذا اللون من المجاز يسمى : المجاز العقلى .

وقا تعالى : « **وينزل لكم من السماء رزقا** »(٨١) اى مطرا يكون سبيلا إلى كثرة النعم ووفرة الرزق ، وقد حدد ذلك كلمة (ينزل) فإن الذى ينزل من السماء هو المطر الذى يحيى الأرض وينبت الزرع ، والرزق مسبب عن المطر ، وكان هذا التجوز للمبالغة فى قيمة الماء الذى عليه يحيا الإنسان والحيوان والنبات ، وصدق الله حيث يقول : « **وجعلنا من الماء كل شىء حى** »(٨٢) ، ولما كان التجوز هنا

---

(٨٠) سورة القارعة : ٦، ٧ .
(٨١) سورة غافر : ١٣ .
(٨٢) سورة الأنبياء : ٣٠ .

فى اللفظ لغير علاقة المشابهة كان مجازاً مرسلا . ولا يخفى عليك ان المجاز افاد إلى جانب المبالغة السابقة الإيجاز فى التعبير ويتجلى لك ذلك بالموازنة بين القول الكريم السابق وبين قولنا : ينزل لكم من السماء مطرا يكون سبيلا لكثرة الخير ووفرة الرزق ، هذا إلى تقرير المعنى وتاكيده بذكر البينة وإقامة البرهان فالرزق ينزل من السماء لان سببه المطر والرزق مسبب عنه ، ولذلك قالوا : المجاز كدعوى الشىء بالبينة والدليل .

وقال تعالى : ((**إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**))(٨٣) ففى الآية الكريمة استعارة تصريحية أصلية فى كلمة (الصراط) فقد شبه الدين الحق بالصراط المستقيم بجامع الإعتدال والوصول إلى المطلوب فى كل منهما ثم تنوسى التشبيه وادعى ان المشبه فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه ثم استعير المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، فقد استعملت كلمة (الصراط) فى غير معناها الحقيقى لعلاقة المشابهة ، لذا كانت استعارة .

وقد افاد هذا التعبير ما سبق من الفوائد التى افادنا بها المجاز العقلى والمجاز المرسل من المبالغة فى فضل الدين وقيمة السير على مبادئه وتقرير المعنى المراد وتقويته ، فالسير على طريق مستقيم يصل بك إلى الهدف المنشود ، كذلك التمسك بمبادىء الدين والسير على سننه تحقق لك الخير والإيجاز فى التعبير ففرق بين القول الكريم وبين قولنا : إهدنا إلى التمسك بالقيم الدينية ليتحقق لنا الفلاح،

---

(٨٣) سورة الفاتحة : ٥ ، ٦ .

ويضاف إلى ما سبق من الفوائد ، فائدة نشأت عن التجوز على سبيل الاستعارة وهى : **توضيح المعنى وتبيينه بعرضه فى صورة محسوسة** فيكون أكثر ثبوتا واشد استقرارا ، فمبادىء الدين معنى معقول أما الصراط المستقيم فإنه أمر واضح ظاهره فقد رأيت أن المجاز مختلف الألوان فمنه المجاز العقلى والمجازى اللغوى واللغوى منه المجاز المرسل ومنه الاستعارة ، كما وقفت على أن المجاز على تعدد ألوانه لا يفهم المراد منه بسهولة وسرعة ، بل بعد تروٍ وتدبر لما فيه من خفاء وما به من لطف ، ولذلك وجب أن يتضمن من الفوائد الأدبية والأسرار البلاغية ما يجعل خفاءه مقبولا وبعده مستساغا وإلا كانت الحقيقة وكان الأسلوب الواضح أكثر قبولا منه لعدم الحاجة إلى التعب الفكرى والمجهود الذهنى فى تأمل المراد منها - ولذلك يقول أبو هلال العسكرى فى تعريفه الاستعارة وبيان فوائدها التى لو لم تكن لكانت الحقيقة أولى منها : « الاستعارة : نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غيره لغرض ، وذلك الغرض إما إن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو بحسن المعرض الذى يبرز فيه ، وهذه الأوصاف موجودة فى الاستعارة المصيبة ، ولولا أن الاستعارة تتضمن ما لا تتضمنه الحقيقة من زيادة فائدة لكانت الحقيقة أولى منها استعمالا »(٨٤) . فيحدد العسكرى القيمة البلاغية للاستعارة فيما سبق من توضيح المعنى وتأكيده والمبالغة فيه والإيجاز ، ويرى أن كل استعارة مصيبة لابد أن تأتى بالفوائد السابقة ، وإلا كانت الحقيقة أولى منها فى الاستعمال .

---

(٨٤) انظر : الصناعتين : أبو هلال العسكرى ، ط أولى ص ٢٠٥ ، وانظر: النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص : ٨٦ .

فالمجاز بصفة عامة لابد أن يتضـمن من الأسرار البلاغية ما يذهب بخفائه ويكتب لـه قبـولا وهذه الأسرار تتمثل كما سبق فى المبالغة وتاكيد المعنى وتقويته والإيجاز ، والوضوح ولما كانت الاسـتعارة تعتمد على التشبيه فإن المعـنى بها يكون أكثر وضوحا وأشـد ظهـورا حيث تبرز المعنويات فى صور محسوسة .

قال تعالى (**مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار**) (٨٥) تلاحظ أن الجرى أسند إلى الأنهـار ، وإسناد الجـرى إلى الأنهـار مجاز عقلى علاقتـه المكانية ، فالأنهار لا تجرى ، والذى يجرى هو المـاء ، وقـد أفاد هـذا التجـوز المبالغة فى كثرة المـاء وسرعة جـريانه حتى ليخيل للرائى أن الأنهـار هى التى تجـرى ، هـذا إلى جانب التعبير عن هـذا المعنى بالقليل من الألفـاظ .

وقال الشاعر :

لدى أسـد شاكى السلاح مقـذف

لـه لبـد أظفـاره لـم تقـلم

فالأسد مستعار للرجل الشجاع ، و « شاكى السلاح » يلائم المستعار له فهو تجـريد ، و « لـه لبـد » يلائم المستعار منـه فهو ترشـيح ، والاستعارة إذا « مطلقة » لتعارض التجريد والترشيح . وقد أفاد إطلاق الأسد على الرجل الشجاع ما سبق من الفوائد التى عرفتها وعلى رأسها : المبالغة فى وصف الرجل بالشجاعة ، غير أن المبالغة هنا ليست كالمبالغة

---

(٨٥) سورة الرعد : ٣٥ .

فى جــرى المــاء فى المثــال السابق ، فقول الله عز وجل : (**تجرى من تحتها الأنهــار**) يفيد المبالغة فى كثرة المــاء عن قولنا : (**تجرى من تحتها الميــاه فى الأنهــار**) وليست كذلك المبالغة فى الاستعارة ، فالمبالغة فى قوله « لدى اســد » من جهــة إثبــات الشجاعة للرجل وتقريرها وأنهــا أمر مؤكد بالقياس على ما هو المثل فى الشجاعة وهو الأســد ، لا من جهــة انه فى هــذا الاسلوب اكثر شجاعة من نظيره على سبيل الحقيقة وهو : لدى رجل شجاع لا يفترق عن الاســد ، ويوضح عبد القاهر ذلك فيقول : « قد اجمع الجميع على ان الكناية ابلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح وان للاستعارة مزية وفضــلا ، وأن المجــاز أبدا بلغ من الحقيقة ، فإذا قلت رأيت أسدا كان لكلامك مزية لا تكون إذا قلت : رأيت رجــلا والاسد سواء فى معني الشجاعة وفى قوة القلب وشــدة البطش وأشباه ذلك ، وإذا قلت : بلغنى انك تتردد فى امرك وانك فى ذلك كمن يقول : أخــرج ولا أخــرج فتقدم رجــلا وتؤخر اخــرى ... واعلم ان سبيلك أولا أن تعــلم أن ليست المزية التى تثبتها لهــذه الاجنــاس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التى تدعى لها فى أنفس المعــانى التى يقصد المتــكلم إليها بخبره . ولكنها فى طريق إثباته لها وتقريره إياها ، فليست المــزية التى تراها لقولك : (رأيت أســدا) على قولك : (رأيت رجلا لا يميز عن الأســد فى شجاعته وجرأته) انك قــد أفدت بالأول زيادة فى مســاواته الاســد ، بل إنك أفدت تأكيدا وتشديدا وقوة فى اثباتك له هــذه المساواة وفى تقريرك لها ، فليس تأثير الاستعارة إذا فى ذات المعنى وحقيقته ، بل فى ايجــابه والحــكم به ، وهكذا قيــاس التمثيل ترى المزية أبدا فى ذلك تقــع فى طريق إثبــات المعنى دون المعنى نفســه ، فإذا سمعتهم يقولون : ان من شــان هــذه الأجناس ان تكسب المعــانى نبلا وفضلا ، وتوجب لها شرفا ، وأن تفخمها فى نفوس السامعين ، وترفع أقدارها عند

المخاطبين ، فإنهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معانى الكلم المفردة ، وإنما يعنون إثبات معانى هذه الكلم لمن تثبت له ويخبر بها عنه »(٨٦) .

البلاغة بين التشبيه والاستعارة : (((

عرفت من خلال النماذج السابقة فضل الاستعارة على الحقيقة ، ومكانتها بين غيرها من الوان المجاز ، حيث تشارك غيرها من المجاز فى المبالغة وتأكيد المعنى وتقويته والتعبير عنه باليسير من اللفظ ، بينما تضيف هى فائدة اخرى وهى توضيحه وإبرازه فى صورة محسوسة .

وقد عرفت أن الاستعارة تبدأ من حيث ينتهى التشبيه ، وانه إذا كان التشبيه الذى اكتفى فيه بذكر الطرفين بعد حذف الأداة ووجه الشبه كقولك : محمد أسد(٨٧) ، تتمثل بلاغته فى انه يخيل لنا أن المشبه هو نفس المشبه به وأن محمدا أسد فعلا ، كانت الاستعارة أوغل فى التخييل وأبعد فى الايهام إذ انها مبنية كما علمت على تناسى التشبيه وإدعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه ، وكان ذلك سر تفوقها وتميزها عن التشبيه على الرغم من اعتمادها عليه ، يوضح عبد القاهر ذلك فيقول :

« وأما الاستعارة فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة انك إذا قلت : « رأيت أسدا » كنت تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشىء الذى يجب له الثبوت والحصول ، وكالأمر الذى نصب له دليل يقطع بوجوده ، وذلك انه إذا كان أسدا فواجب أن تكون له تلك

---

(٨٦) انظر : دلائل الاعجاز ص : ٥٦ ، ٥٧ ط المراغى .

(٨٧) والذى لقبه بعض البلاغيين بالتشبيه البليغ .

الشجاعة العظيمة وكالمستحيل او الممتنع أن يعـرى عنهـا وإذا صرحت بالتشبيه فقلت : « رأيت رجـلا كالأسد » كنت قـد اثبتها إثبـات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون ولم يكن من حيث الوجوبفى شيء وحكم التمثيل حـكم الاستعارة سواء فإنك إذا قلت : « أراك تقـدم رجلا وتؤخر أخـرى » فأوجبت له الصورة التى يقطع معها بالتحير والتـردد كان ابلغ لا محـالة من أن تجرى على الظاهر فتقول : « قـد جعلت تتردد فى أمرك ، فأنت كمن يقول : أخـرج ولا أخـرج فيقدم رجلا ويؤخر أخرى »(٨٨) .

فالاستعارة تفضل المجـاز المرسل والعقلى لأنهـا أكثر توضـيحا للمعنى منهما ، وتفضل التشبيه البليغ لأنهـا أدخل منـه فى التناسى وأشد فى التوهم وأبعد فى الخيـال ، والاستعارة كما علمت متنوعة ، فادخلها فى البلاغة الاستعارة التمثيلية لمـا تستوجبه من دقة النظر لكثرة أجزائها وتعـدد فروعها ويليها المكنية لشـدة خفائها وبعدها التصريحية وأبلغهـا المرشحة فالمطلقة ثـم المجـردة .

يبين لك مما سـبق مفهوم الاستعارة وآثارها البلاغية الجمالية فى القرآن الكريم وكلام الرسول ﷺ والمختار من أشـعار العرب وأوجـه التشابه والتباين بينها وبين لداتها من ألوان البيـان كالتشبيه والمجـاز ، ولا أخالك تشك أدنى شك بعـد ذلك فى عظيم أثرها وجـلال قدرها وأنها تبرز هـذا البيان أبدا فى صـورة مستجدة تزيد قدره نبـلا وتوجب له بعد الفضل فضـلا ، إذ نرى بهـا الجماد حيـا ناطقا ، والأعجم فصـيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية بادية جليـة .

فلننتقل بعـد ذلك إلى روضـة ثالثة من رياض البيان ، ودوحـة عالية من أدواحه وهى الكناية .

---

(٨٨) دلائل الإعجـاز ص : ٥٨ .

الكنـــــاية

من وجـــوه البيـــان خـــلاف التشبيه والمجاز بأنواعه : الكـــنــاية . وقبل أن نتحدث عن الأحـــوال التى تستعمل فيها ، وأسرارها البلاغية ، وتقسيمات البلاغيين لها ، نذكر تعريفها فى اللغة وعند علماء البلاغة .

معنى الكناية فى اللغة :

يقـــول الجوهرى فى « الصحاح »(١٨) : الكناية : أن تتكلم بشىء وتريد بـــه غـــيره ، وقد كنيت بكـــذا عن كـــذا وكنوت ، وأنشد أبو زياد:

وإنى لأكنـــو(١٩) عن قـــذور بغيرهـــا

وأعـــرب أحيانـــا بهـــا فاصــــــارح

وقال صاحب « القاموس »(٢٠) .

« كنى بـــه عن كـــذا يكنى ويكنو كناية » : تكلم بما يستدل به عليه، أو أن تتكلم بشىء وأنت تريد غـــيره ، أو بلفظ يجاذبه جانبا حقيقة ومجاز .

تعريف البلاغيين للكناية ـــ والكناية بين الحقيقة والمجاز

نختار من تعريفات علماء البلاغة للكناية أكثرهـــا اشـــتهارا ، وهو تعريفها عند « عبد القاهر الجرجانى » ثم تعريفها عند « الخطيب القزوينى » وسنرى من خـــلال التعريفين الصلة الواضحة بين المعنى اللغوى للكناية والمعنى الاصطلاحى لها ، كما نتبين من خـــلال النظر فى كل من التعريفين إلى أى القسمين ترجع الكناية : الحقيقة أو المجاز ؟

---

(١٨) جـ ٦ مادة (كنى) ط ثانية ١٩٨٢ م ـــ ١٤٠٢ هـ ، تحقيق د. أحمـــد عبد الغفور عطار .

(١٩) وفى لسان العرب : لأكنى .

(٢٠) جـ ٣ ص ٣٨٦ ط ثانية ـــ الحلبى ١٩٥٢ م .

تعريف « عبد القاهر للكناية » :

تحدث « عبد القاهر » عن الكناية فى أكثر من موطن ، من ذلك حديثه عنها مع « المجاز » تحت عنوان : فى اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره ، وأن ذلك يتمثل فى أمرين : المجاز والكناية ، وانهما معا من وجوه التوسع والتفن فى الكلام ، ومما ذكره عن الكناية : « والمراد بالكناية هاهنا : أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومىء به إليه ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم : « هو طويل النجاد » يريدون طويل القامة ، « وكثير رماد القدر » يعنون كثير القرى ، وفى المرأة « نؤوم الضحى » ، والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا فى هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه فى الوجود وأن يكون إذا كان ، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد ، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر ؟ ، وإذا كانت المرأة مترفة لها من تكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى »(٢١) .

فنرى من كلام (عبد القاهر) السابق : أن الكلام على سبيل الكناية لا يكون مقصورا لذاته ، وإنما يشير الكلام الموجود إلى معنى آخر يكون هو المقصود ، وبذلك يكون معنا فى أسلوب الكناية معنيان : أحدهما ظاهر غير مقصود ، والآخر خفى مقصود ، وقد أطلق عليهما (عبد القاهر) « المعنى ومعنى المعنى » ويشارك « المجاز » « الكناية » فى ذلك . ويقول

---

(٢١) دلائل الإعجاز ص ٦٦ تحقيق الشيخ محمود شاكر .

(عبد القاهر) عن « الكناية والمجاز » فى أن كلا منهما من « معنى المعنى » فى موطن آخر : « الكلام على ضربين »(٢٢) : ضرب انت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن «زيد» مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت : خرج زيد ، وبالانطلاق عن عمرو فقلت: « عمرو منطلق » وعلى هذا القيس ، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا الامر على « الكناية والاستعارة والتمثيل »، أو لا ترى أنك إذا قلت : « هو كثير رماد القدر » أو قلت : « طويل النجاد » أو قلت فى المراة : « نؤوم الضحى » فإنك فى جميع ذلك لا تفيد غرضك الذى تعنى من مجرد اللفظ ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذى يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك ، كمعرفتك من « كثير رماد القدر » أنه مضياف ، ومن « طويل النجاد » أنه طويل القامة ، ومن « نؤوم الضحى فى المراة انها مترفة مخدومة لها من يكفيها امرها ، وكذا إذا قال : « رايت اسدا » وذلك الحال على انه لم يرد السبع ، علمت انه اراد التشبيه ، إلا انه بالغ فجعل الذى رآه بحيث لا يتميز عن الاسد فى شجاعته .

وبعد أن أوضح (عبد القاهر) نظريا وتطبيقيا فى كلامه السابق أن للمجاز والكناية شكلين : ظاهرا غير مراد وخفيا هو المراد ، اوجز ذلك بقوله(٢٣) :

---

(٢٢) ص ٢٦٢ .
(٢٣) ص ٢٦٣ .

وإذ قـد عرفت هـذه الجملة ، فهاهنا عبـارة مختصرة وهي أن تقول : « المعنى ومعنى المعنى » تعنى بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ والـذى تصـل إليـه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى ، أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخـر ، كالذى فسرت لك ».

وبالنظـر فى كلام (عبدا لقاهر) السابق نـكاد نفهم فيما ذكـره من تعريف للكنايـة واستشهاد لهـا وتحليل لمـا ساق من شواهد مايلى:

١ ــ أن الكناية كالمجاز لكل منهما شكل ظاهـرى غير مـراد ، ومعنى خفى هو المـراد .

٢ ــ أنهما قسيمان للحقيقة ، مما يعنى أن الكناية عنده تدخـل فى المجاز(٢٤) وذلك على خلاف ما رآه بعض الباحثين من أنها تدخـل فى

---

(٢٤) دلائل الإعجاز ص ٤٣١ .

(٢٤) يفهم من كلام (عبد القاهر) فى موطن آخـر أن الكناية من المجـاز بوضـوح ، لأن الكلام معنيين : معنى ظاهر غير مراد ، ومعنى خفى هو المقصود ، ويحدد هـذا المعنى المقصود القرينة التى تتمثل فى السياق فيقول(٢٤) : « إذا نظرت إلى الكناية وجـدت حقيقتها ومحصول امرهـا أنها إثبات لمعنى ، أنت تعرف ذلك المعنى من طرق المعقول دون طريق اللفظ ، الا ترى انك لمـا نظـرت إلى قولهم : « هو كثير رمـاد القـدر » وعرفت منه أنهـم ارادوا أنـه كثير القرى والضيافة ، لـم تعرف ذلك من اللفظ ، ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسـك فقلت : إنـه كلام قـد جاء عنهم فى المدح ، ولا معنى للمدح بكثرة الرمـاد ، فليـس إلا انهم ارادوا أن يدلـوا بكثرة الرمـاد على أنـه تنصب لـه القـدور =

الحقيقة(٢٥) .

=

ويطبخ فيها للقـرى والضيافة ، وذلك لأنـه إذا كثر الطبخ فى القـدور كثر إحراق الحطب تحتها ، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة ، وهكذا السبيل فى كل ما كان كناية .

(٢٥) وهو المرحـوم الدكتور (احمد موسى) فقد راى ان الكنـاية عند (عبد القاهر) و (السكاكى) من الحقيقة ، لأن الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضـع لـه ، سـواء اكان ما وضع لـه مقصوداً لذاتـه ام مقصودا لينتقل منه إلى غيره ، والكناية من النوع الثانى ، اى انها لفظ مسـتعمل فيما وضع لـه لينتقل منه إلى غير الموضـوع لـه ، بحيث يكون غـير الموضوع لـه هو متعلق الإثبات والنفى ، ومرجع الصـدق والكـذب ، وعلى هذا تفارق المجاز من اوسع الأبواب ، لأنها حقيقة وكفى .

(٢٥) وهـذا لا يعنى ان كل مثال للكنايـة يجـوز فيـه إرادة المعنى الحقيقى ، فقد تمتنع إرادته لأنه غير متحقق فى الواقع ، كما تقـول كناية عن شخص طويل القامة : « فلان طويل النجاد » إذ يصح ان تقول هذا فى شخص لا سيف لـه ، فضلا عن أن يكون له نجاد ، أو لأن المعنى الحقيقى مستحيل ، وذلك كقوله تعالى : « **الرحمـن على العرش إستوى** » كناية عن الاستيلاء والسيطرة ، فالمعـنى الحقيقى هنا تمتنع إرادته ، إذ يستحيل على الله تعالى أن ينسـب إليه « الاستواء » بمعناه الحقيـقى وهو « الجلوس » ، وكقولـه تعالى : « **بل يداه مبسوطتان** » كناية عن « الجود » لأن « اليـد » بمعناها الحقيقى وهى الجارحة مستحيل ثبوتها لله تعالى ، ولكـن

=

٣ ـ وانه بناء على هذا الذى نفهمه من كلام (عبد القاهر) الذى يدخل « الكناية » مع الحقيقة ، فى أن الفرق بينها وبين المجاز يتمثل فى العلاقة بين المعنيين الظاهر والخفى ، فإن كان المشابهة أو غيرها كالسببية والمسببية والجزئية والكلية وغيرها فإنه يكون مجازا لغويا « استعارة أو مرسلا » حسب نوع العلاقة ، وإن كانت العلاقة بينهما غير ما سبق ، كوجود وسائط بينهما قريبة أو بعيدة ، قليلة أو كثيرة ، كان الكلام كناية .

تعريف الكناية عند (الخطيب) :

أما الخطيب القزوينى فقد عرف الكناية بما يخرجها من الحقيقة وعن المجاز وجعلها واسطة بينهما ، وقد اعتمد فى ذلك على أن قرينة الكناية يجوز معها إرادة المعنى الحقيقى على خلاف قرينة المجاز التى تمنع من إرادة المعنى الحقيقى وتحدد المعنى المجازى المراد ، ولذلك قيل : إن قرينة المجاز مانعة ، أما قرينة الكناية فإنها مجوزة ، فقولنا : فلان كثير رماد القدر ، كناية عن الكرم ، ويمكن أن يقصد

= هذا وذاك لا يمنع من كون هذه الأساليب من الكناية ، لأنه لولا خصوص المادة لجازت إرادة معانيها الحقيقية ، لأن الشأن فى قرينة الكناية أنها مجوزة لا مانعة ، فمتى تحقق هذا الشرط تحققت الكناية .

البلاغة التطبيقية د. احمد موسى ص ٢٢٩ وما بعدها .

المعنى الحقيقى وهو كثرة الرمـاد المتخلف عن كثرة الإحـراق فعلا(٢٥).

يقول الخطيب فى تعريفه للكناية :

« الكناية لفظ أريد بـه لازم معناه ، مع جواز إرادة معناه حينئـذ كقولك : فـلان طويل النجـاد(٢٦) — تريد طويل القامة ، وفـلانة نؤوم الضحى أى مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعى بنفسها فى إصـلاح المهمات ، وذلك أن وقت الضحى وقت سعى نساء العرب فى أمر المعاش وكفاية أسبابه وتحصيل ما يحتاج إليه فى تهيئة المتناولات وتدبير إصلاحها، فلا تنـام فيـه من نسائهم إلا من تكون لها خـدم ينوبون عنها فى السعى لذلك ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد والنوم فى الضحى من غـير تأويل ، فالفرق بينها وبـين المجاز من هـذا الوجه ، أى من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه ، فإن المجاز ينافى ذلك(٢٧) .

وما رآه الخطيب فى كون الكناية واسطة هو الأرجح والأنسب .

أقســام الكناية :

استنبط البلاغيون المتأخرون من كلام (عبد القاهر) عن الكنـاية، ومن تحليلاته لـما سرد من شواهد وأمثلـة لهـا ، والأسرار البلاغيـة لكل منها أقسـاما للكناية تتمثل فى : الكناية عن صـفة والكناية عن نسبة والكناية عن موصوف ، وقـد ذكروا ضوابط لكل منها .

الكناية عن نسبة :

والمراد بالنسـبة : إثبـات أمـر لأمـر أو نفيه عنه ، والعلامـة

(٢٦) طويل النجاد : أى طويل حمائل السيف .
(٢٧) بغية الإيضاح ١٧٣/٣ تحقيق : عبد المتعال الصعيدي ، ط سادسة.

الميزة لهـذا النوع من الكناية : ان يصرح بالموصوف وبالصفة ولا يصرح بالنسبة بينهما ، ولكن يذكـر مكانها نسـبة اخرى تستتبع وتسـتلزم النسبة المـراد إثباتها أو نفيها كأن تقول فى الكناية عن أخلاق شـخص من الناس : حيث يجلس يكون الخلق الحسن ، وعن كرم آخـر بقولك : بيته مؤسس على الكرم ، بنسبة الكرم إلى بيتـه ليلزم من ذلك إثبـات الكرم إليه بطريق الكناية ، ويقول (عبد القاهر) فى وصف هـذا النوع من الكناية ويلمح إلى سر بلاغته وجماله بقوله : « إنهم يرومون وصـف الرجل ومدحه ، وإثبات معنى من المعانى الشريفة له ، فيدعون التصريح بذلك ، ويكنون عن جعلها فيـه بجعلها فى شىء يشتمل عليه ويتلبس به، ويتوصلون فى الجملة إلى ما ارادوا من الإثبات ، لا من الجهة الظاهـرة المعروفة ، بل من طريق يخفى ، ومسلك يدق ، ومثاله قـول زياد الأعجم وقـد نزل على احـد الناس يدعى على عبد الله بن الحشرج بسـابور فاكرمه والطفه :

إن السـماحة والمـروءة والنـدى

فى قبـة ضـربت على ابن الحشرج

فقد مدحه بالصفات السابقة ، ولم يثبتها بالطـريق الظاهر والصريح ، وإنما اثبتها للقبـة التى يجلس تحتها ليلزم من ذلك إثباتها لـه بوجـه ابلـغ واقـوى ، لانها إذا ثبتت للمحل الـذى يقيم فيـه الممدوح لـزم اتصـاف الممدوح بهـا وذلك ابلـغ واجمل واقـوى فى المدح من التصريح بالصـفات المذكـورة ، ومما هو نظـير ذلك فى العـدول عن التصريح بالصفات بنسبتها إلى شىء يتصل بالممدوح ليلزم وصف الممدوح بها بوجه ابلـغ واجمل واحسن قولهم :

« المجد بين ثوبيه » و « الكرم فى جيبه »

وقول زهير فى مدح هرم بن سنان :

هناك ربك ما أعطاك من حسن

وحيثما يك امر صالح فكن

وقول الكميت :

يضير ابان قرين السما

ح والمكرمات معا حيث صارا

وقول ابى نواس :

فما جازه جود ولا حل دونه

ولكن يصير الجود حيث يصير

بإثبات الصفات السابقة للممدوحين بها لأماكن يوجدون بها ليلزم من ذلك إثباتها لهم بوجه ابلغ واحسن واقوى ، وعلى ذلك قول (الشنفرى) يصف امرأة بالعفة :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها

إذا ما بيوت بالملامة حلت

بنفى اللوم عن (بيتها) ليلزم من ذلك نفيه عنها ووصفها بالعفة على ابلغ وجه واحسنه واقواه ، ومن امثلة الكناية عن النسبة عدا ما سبق قول حسان رضى الله عنه :

بنى المجد بيتا فاستقرت عماده

علينا فاعيا الناس ان يتحولا

وقول البحترى :

او ما رايت المجد القى رحله

فى آل طلحة ثم لم يتحول

فقد جعل المجـد والممدوح فى مكان واحـد ، وجعل « المجد » حيث يكون الممـدوح .

وقول أبى تمـام :

أبين فمـا يزرن سـوى كريم
وحسبك أن يزرن أبا سعيد(٢٨)

ومثله وإن لم يبلغ مبلغه قول الآخـر :

متى تخـلو تميـم من كريم
ومسلمة بن عمرو من تميـم(٢٩)

ويختم « عبد القاهر » الحديث عن شواهد هـذا النوع من الكناية بقـوله :

« وليس لشعب هـذا الأصل وفروعه وأمثلته وصـوره وطـرقه ومسالكه حـد ونهـاية »(٣٠) .

الكنـاية عن موصـوف

والعـلامة التى تميزها : أن يصرح فى الكلام الذى تتبـع فيـه بالصفة وبالنسبة ويطوى الموصوف المقصود بالكناية ولا يصرح به ، ويذكر

---

(٢٨) أى وحسبك فى الدلالة على أنهن لا يزرن سواه ، أنهن يزرن أبـا سعيد ، والخطاب فى مثل هذا لكل من سمع الشعر .

(٢٩) وكقولهم : « مثلك لا يبخل » قال الزمخشرى : نفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاتـه ، قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده وعمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه .

(٣٠) الدلائل من ص : ٣٠٦ - ٣١٤ تحقيق الشيخ/ شاكر .

مكانه صفة أو أوصاف تختص به وتدل عليه ، كقول المتنبى فى مدح سيف الدولة لما ظفر ببنى كلاب :

فمساهم وبسطهم حرير
وصبحهم وبسطهم تراب
ومن فى كفه منهم قناة
كمن فى كفه منهم خضاب

ففى البيت الثانى كنايتان كل منهما عن موصوف ، قوله : « من فى كفه منهم قناة » كناية عن الرجل ، لأن حمل الرماح والقتال بها من سمات الرجال ، وقوله « من فى كفه منهم خضاب » كناية عن المرأة ، لأن وضع الخضاب فى الأكف من سمات النساء ، وواضح أن فى البيت الأول كنايتين كل منهما عن صفة ، « وبسطهم حرير » كناية عن الغنى والترف ، « بسطهم تراب » كناية عن الفقر والإذلال ، يريد الشاعر : أنهم لهيبة سيف الدولة قد خذلوا حتى صار الرجال كالنساء .

ومن الكناية عن موصوف : الكناية بحرف الضاد عن اللغة العربية لأن حرف الضاد من الحروف التى تختص بالعربية دون غيرها فى قول أمير الشعراء « أحمد شوقى » :

إن الذى ملأ اللغات محاسنا
جعل الجمال وسره فى الضاد

وكالكناية عن « القلب » بموطن الكتمان فى قول الشاعر :

قوم ترى أرماحهم يوم الوغى
مشغوفة بمواطن الكتمان

وكالكناية عن « الطائرة » بسليل البخار فى قول حافظ :

صفحة البرق أومضت فى الغمام
ام شهاب يشق جوف الظلام
ام سليل البخار طار إلى القصد
فاعيا سوابق الأوهام

وقوله تعالى : « **وحملناه على ذات الواح ودسر** »(٣١) كناية عن السفينة ، لأن مجموع الأمرين يختص بالسفينة ، وقوله (ﷺ) كناية عن النساء « بالقوارير » فى قوله « لأنجشة » وكان يسوق الإبل سوقا عنيفا : « يا أنجشة : رويدك سوقك بالقوارير »(٣٢) .

الكناية عن صفة

والعلامة التى تميزها : أن يصرح بالموصوف ، وبالنسبة إليه ، وتطوى الصفة المقصودة على ان يذكر مكانها صفة أو صفات تدل عليها(٣٣) .

هذا والكناية عن صفة تتنوع بحسب قلة الوسائط وكثرتها بين المعنيين الحقيقى والكنائى إلى : قريبة وبعيدة ، والقريبة إلى : واضحة إذا كان المعنى الكنائى يفهم بسهولة وبدون مشقة وخفية إذا لم يفهم المعنى الكنائى إلا بصعوبة وتأمل وطول نظر .

فمن الكنايات القريبة الواضحة اى التى تنعدم الوسائط فيها بين المعنيين الحقيقى والكنائى ولا تحتاج لتأمل طويل فى الوقوف عليها قول عمر بن ابى ربيعة :

---

(٣١) سورة القمر : ١٣ .
(٣٢) جمع قارورة وهى من الزجاج .
(٣٣) ويراد بالصفة : المعنى القائم بالغير لا خصوص النعت النحوى ، كالشجاعة والجبن والكرم والبخل وما شاكل ذلك .

بعيــدة مهــوى القــرط إما لنوفل

أبوها وإما عبد شمس وهاشم(٣٤)

فقوله « بعيدة مهوى القرط » كناية عن طول العنق ، وهى كنــاية قريبة واضحة ، لانه لا وســائط بين المعنيين ، كما يفهــم المعنى الكنائى بيسر وبدون مشــقة . ومثلها الكناية عن طول القامة بطول النجاد .

ومن الكنايات القريبة الخفية التى تنعدم فيها الوســائط بين المعنى الظاهر غير المراد والمعنى الخفى المراد لكنها لا تفهم إلا بعــد تأمل وطول نظــر الكناية عن قلة الفهم بعرض القفا فى قولك : فلان عريض القفا ، فعلى الرغم من عدم وجــود وسائط بين المعنيين : الظاهر غير المــراد والكنائى المراد إلانهــا خفية لعــدم اشتهارها ولاحتياجها إلى تأمل ونظر فى الوقوف عليها .

ومن الكنايات البعيدة التى ينتقل فيها من المعنى الظاهر غير المراد إلى المعنى الكنائى المــراد بواسطة وأحــدة الكناية عن قلة الفهم بعرض الوســادة فى قولك : « فلان عريض الوســادة » حيث ينتقل من عرض الوســادة إلى : عرض القفــا ، ومن عرض القفا إلى المعنى الكنــائى المقصود وهو قــلة الفهم ، وقــد وردت هــذه الكناية على لسان الرسول ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم عن عدى بن حاتم قال : لمــا نزلت هــذه الآية : « **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجــر ..** » عمدت إلى عقالين أحدهما أســود والآخــر أبيض ، فجعلتهما تحت وسادتى وجعلت أنظر إليهما ، فلما تبــين لى الأبيض من

---

(٣٤) القرط : حلى الأذن ، ومهواه : مسقطه من المنكب .

الأسود أمسكت ، فلما أصبحت غدوت على رسول الله (ﷺ) فأخبرته بالذى صنعت فقال : « إن كان وسادك لعريضا » .

ومن ذلك قول أبى تمام :

فإن أنا لم يحمدك عنى صاغرا

عدوك فاعلم أننى غير حامد

يريد أن مدائحى لك إن لم تكن من الجودة بحيث يحفظها أعداؤك صاغرين فلا تعدنى مادحا لك .

فكنى بحفظ الأعداء مدحه له عن إجادة شعره ومديحه ، وبين المعنيين واسطة واحدة ، إذ ينتقل من حفظ الأعداء المدح له إلى إعجابهم بهذا المديح وينتقل من ذلك إلى جودة المديح ورفعة قدره وعظيم قيمته . ووصف العدو « بالصغار » لأن من يحفظ المديح فى عدوه ويردده إنما يذل نفسه .

ومن ذلك قول الشاعر فى وصف راعى الإبل أو غنم :

ضعيف العصا بادى العروق ترى له

عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا(٣٥)

وقول الآخر :

صلب العصا بالضرب قد دماها

تود أن الله قد أفناها(٣٦)

---

(٣٥) بادى العروق : ظاهرها لقلة اللحم فى جتمه ، والمراد بالإصبع : الأثر الحسن على سبيل المجاز المرسل .

(٣٦) هو من قول أبى العلاء بن سليمان فى الإبل ، والضرب يطلق على الضرب بالعصا وعلى السير فى الأرض ، أفناها : يعنى أهلكها من شدته عليها .

أى جعلها كالدمى فى الحسن ، والغرض من قول الأول : « ضعيف العصا » وقول الآخر : « صلب العصا » وإن كانا فى الظاهر متضادين فإنهما كنايتان عن شىء واحد ، وهو حسن الرعية ، والعمل بما يصلحها ويحسن أثره عليها ، فأراد الأول أنه رفيق مشفق عليها لا يقصد من حمل العصا أن يوجعها بالضرب من غير فائدة ، فهو يتخير ما لان من العصا ، وأراد الثانى أنه جيد الضبط لها عارف بسياستها فى الرعى ، يزجرها عن المراعى التى لا تحمد ، ويتوخى بها ما تسمن عليه ، ويتضمن أيضا أنه يمنعها عن التشرد والتبدد ، وأنها لما عرفت من شدة شكيمته وقوة عزيمته تنساق فى الجهة التى يريدها : وقوله : « بالضرب قد دماها » تورية حسنة »(٣٧) ، ويؤكده أمرها قوله : « صلب العصا » .

ومن الكنايات البعيدة التى ينتقل فيها من المعنى الظاهر غير المراد إلى المعنى الكنائى المقصود بأكثر من واسطة قولهم : « فلان كثير الرماد » كناية عن الكرم ، فإنه ينتقل من : كثرة الرماد إلى كثرة الإحراق وإشعال النار ، ومن ذلك إلى كثرة الطبخ ، ومنه إلى كثرة الذبح ، ومنه إلى كثرة الآكلين ، ومنه إلى المعنى المقصود وهو الكرم ، فتعددت الوسائط كما رأينا . ومن ذلك قول الشاعر :

لا أمتع العوذ بالفصال ولا
ابتاع إلا قريبة الأجل(٣٨)

---

(٣٥) لأنه يحتمل معنى قريبا وهو أن يضربها فيسيل دمها ، ومعنى بعيدا ، وهو جعلها كالدمى ، والمراد هو المعنى البعيد ، وإنما أكد أمرها قوله : « صلب العصا » لأنه يناسب المعنى القريب .

(٣٨) العوذ : جمع عائذ وهى الناقة الحديثة النتاج ، والفصال : جمع فصيل وهو : ولد الناقة .

ففى البيت كنايتـان كل منهما عن صـفة وهى : الكرم ، قوله :
« لا أمتع العوذ بالفصال » أى أنه يذبح النوق حديثات الولادة فلا يجعل فصالها تستمع بهـا ، أو يذبح فصالها فيحرم النوق من الاستمتاع برؤيتها ، يعنى أن النحـر يكون فى الأول للنوق وفى الثانى للفصال ، وينتقل من النحر على هـذا النحو إلى كثرة الضـيوف والآكلين ، وبعـد ذلك إلى الكرم . وكذلك قوله « لا أبتـاع إلا قريبة الأجل » أى إن كل ما يشتريه يذبح بسرعة للضيوف ، فينتقل منـه إلى الذبح ، ومن الذبح إلى الكرم .

وللسكاكى تقسيمات أخـرى للكناية عدا ما سبق ، لا تختلف عنهـا إلا من حيث الاصطلاح والتسمية ، حيث اعتمد فى تقسيمه لها أيضـا على قلة الوسـائط أو كثرتها بين المعنيين : الظاهر والكنائى . وعلى ذلك يكون الخـلاف بين التقسيمين لفظيـا ، واقسام الكناية عند السكاكى تتمثل فى التعريض والتلويح ، الرمز ، الايماء ، الإشارة .

العـلاقة بين المعنيين الحقيقى والكنائى :

عرفنا أن تقسيمات الكناية عند « السكاكى وغيره » تعتمد على قلة أو كثرة الوسائط بين المعنيين : الحقيقى والكنائى ، وعلى الرغم من ان كثرة الوسـائط وتعددها تجعل الكناية من النوع البعيد الذى يعد احسن صـنعا والطف فكرا وادخل فى البلاغة ، إلا أنه لا يغيب عن بالنا أن هذا البعد الناشىء عن تعـدد الوسائط سببه إبداع الصنع وتدقيق الفـكر ، وليس البعد الذى ينتج عن سوء الفـكر وفساد التصـوير ولذلك ذكر « البلاغيون » أنه مما يدخل فى تحقيق الجمال للكناية وتوفير الحسن لها : يسر الصـلة وسهولة العلاقة بين المعنيين : الظاهر والكنائى ، فإذا مـا خفيت الصـلة فسدت الكناية وتحول الكلام إلى تعمية وإلغـاز ، وعيب

وذم ، ويسمى النقاد ذلك تعقيدا معنويا ، يخل بفصاحة الكلام ، ويخرجه بالقطع من دائرة البلاغة ، لذلك كانت دراسة فنون البيان ووجوهه تقى الأساليب من هذا العيب الذى يعرف بالتعقيد المعنوى الذى يتمثل كما عرفنا فى خفاء العلاقة بين المعنيين الأول والثانى ، أو الظاهر غير المراد والكنائى المراد .

لقد ذكر « عبد القاهر » أن العلاقة بين المعنيين الأول والثانى ينبغى أن تكون واضحة جلية يمكن تتبعها والوقوف عليها ، وليست بعيدة خفية يحار الناس فى معرفتها وإلا أصبح الكلام غامضا معقدا ، وذلك مما يعيب الأساليب حيث يتعب الفكر ويرهق الذهن فى محاولة الوصول إلى المقصود بدون فائدة وذلك بالنسبة لكل من المجاز والكناية ، كأن تكون العلاقة فى الاستعارة واضحة بين المستعار له والمستعار منه كالشجاعة بين الأسد والرجل الشجاع ، لا أن تكون خافية كاستعارة الأسد نفسه للرجل الأبخر بجامع فساد الرائحة فى كل ، فكثير من الناس لا ينتبه لهذه العلاقة ولا يفطن لها ، كما يدركون بسرعة ما بين الأسد والرجل الشجاع من الشبه فى الشجاعة ، لذلك يقبل الاستعمال الأول ويعاب الاستعمال الثانى .

كذلك فى الكناية لا يتعب الذهن فى الوقوف على ما بين « كثير رماد القدر » والمعنى الكنائى المقصود « الكرم » من تعلق وارتباط على الرغم من تعدد الوسائط بينهما ، حيث إن كثرة الرماد ناجمة عن كثرة الإحراق وكثرة الإحراق ناشئة عن كثرة الطبخ ، وكثرة الطبخ ناجمة عن كثرة الآكلين ، وكثرة الآكلين أمارة على الكرم ، وذلك على خلاف ما يكون من

خفاء العلاقة وبعدها بين المعنيين : الظاهر غير المراد والكنائى المراد مما يشتت الذهن ويضنى الفكر كالبيت المشهور للعباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا

وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

يريد أن ما أعانيه الآن من لوعة وأسى لفراقى لكم وبعدى عنكم سيتحول فى المستقبل إلى سرور وفرح لكثرة تذكرى لكم وشدة تعلقى بكم وبالتأمل فيما ذكره الشاعر فى البيت نرى أنه قد حالفه التوفيق فى بعضه وجانبه فى بعضه الآخر . فقد حالفه التوفيق فيما كنى به عما يعتريه من هم وحزن عند الرحيل وفراق أحبابه بقوله : « وتسكب عيناى الدموع » إذ أن سكب الدموع من أمارات الحزن وسماته ، فالعلاقة بين سكب الدموع والحزن من الوضوح بمكان ، لكنه جانب الصواب فى كنايته عن سروره الدائم فى المستقبل بقوله : « لتجمدا » ، حيث أن « جمود العين » فى اللغة ليس من أمارات السرور وإنما من أمارات الحزن ، حيث تبخل العين بالبكاء مع أن الحال حال حزن ، لذلك تعقد المعنى لفساد وسوء العلاقة بين المعنيين : جمود العين والسرور الدائم .

وكان الشاعر غير موفق فى الكناية عن السرور الدائم بجمود العين لأن ذلك على خلاف المعروف والمعهود من ألفاظ اللغة وأساليبها ، وقد أخرج النقاد هذا البيت من دائرة الفصاحة ، ولقبوا هذا العيب بالتعقيد المعنوى .

ونذكر ما قاله « عبد القاهر » عن سهولة العلاقة ووضوح الصلة بين المعنيين الأول والثانى : « إنهم أرادوا أن من شرط البلاغة أن يكون

المعنى الأول الذى تجعله دليــلا على المعنى الثانى ووسيطا بينك وبينــه منمكنا فى دلالته مستقلا بوساطته ، يسفر بينك وبينه أحسن ســـفارة وبشير لك إليــه أبين إشارة «(٣٩) .

ثم يقول « عبد القاهر » بعــد ذلك : « وإن أردت أن تعرف ما حاله بالضد من هــذا ، فكان منقوص القوة فى تأدية ما أريد منه ، لأنه يعترضه ما يمنعه أن يقضى حــق السفارة فيما بينك وبين معنـــاك ، ويوضح تمام الإيضاح عن مغزاك ، فانظر إلى قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنــكم لتقربوا

وتسكب عينــاى الدموع لتجمــدا

بدأ فدل « بسكب الدموع » على ما يوجبه الفراق من الحزن والكمد . فأحسن وأصاب ، لأن من شأن البكاء أبدا أن يكون أمارة للحزن وأن يجعل دلالة عليه ، وكناية عنــه ، كقولهم : « أبكانى وأضحكنى » على معنى : « ساءنى وسرنى » .... ثم ســاق هــذا القياس إلى نقيضه فالتمس أن يدل على ما يوجبه دوام التلاقى من السرور بقوله : « لتجمدا » وغلط فيما ظن ، وذلك أن الجمود هو أن لا تبــكى العين مع أن الحال حــال بكاء ، ومع أن العين يراد منها أن تبكى »(٤٠) .

تقسيمات « الســكاكى » للكنــاية

قسم « الســكاكى » الكناية إلى : تعــريض وتلويح ورمز وإيمــاء وإشــارة . وقــد بنى تقسيم هــذا على أن الكناية إن كانت عرضــية فالأنسب أن تسمى تعريضــا ، مثل قوله (ﷺ) : « المسلم من ســـلم

---

(٣٩) دلائل الإعجاز ص : ٢٦٧ ، ٢٦٨ .
(٤٠) ص : ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

المسلمون من لسانه ويده » فالمعنى الصريح للقول النبوى الكريم : حصر الإسلام فى غير المؤذى ، ومعناه الكنائى : نفى الإسلام عن مؤذ معين ، وذلك هو المعنى المعرض به وليس هذا المعنى معنى حقيقيا ولا مجازيا ولا كنائيا ، لانه لم يفهم من اللفظ اصلا ، وإنما يفهم من السياق وقرائن الاحوال .

ثم ذكر « السكاكى » ان الكناية إن لم تكن عرضية ، فإن زادت وسائطها عن واحدة سميت « تلويحا » لأن « التلويح » ان تشير إلى غيرك من بعد ، وإن كان الانتقال فيها بغير واسطة او بواسطة واحدة ، فإن كان فيها نوع خفاء فالمناسب ان تسمى « رمزا » لأن « الرمز » ان تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية ، وإن لم يكن فيها شيء من الخفاء فالمناسب ان تسمى « إيماء وإشارة » .

وهذه التقسيمات لا تختلف كما ذكرنا عن التقسيمات السابقة إلا من حيث التسمية ، وهى عند « عبد القاهر » من قبيل المترادفات كما أن « عبد القاهر » لم يتحدث عن « التعريض » .

التعريض

عرفنا ان التعريض ليس من الحقيقة ولا من المجاز ولا من الكناية ، لانه لا يفهم من الالفاظ ، والحقيقة والمجاز والكناية من مدلولات الالفاظ ، وإنما يفهم « التعريض » من السياق وقرائن الأحوال .

والتعريض فى اللغة : ضد التصريح ، يقال : عرض لفلان وبفلان ، إذا قال قولا وهو يعنيه ، ويقال : نظر إليه من عرض أى من جانب .

والتعريض فى الاصطلاح : هو المعني الحاصل عند اللفظ لا به ،

والتعريف يتكون من شقين : « المعنى الحاصل عند اللفظ » ويشمل ذلك : الحقيقة والمجاز والكناية ، والشق الثانى : « لا بـه » مخرج لهـا جميعا ، الحقيقة والمجاز والكناية ، لأن كلا منهما يدل عليه بالألفاظ ، فهى حاصلة عند ذكر الألفاظ وبهـا ، أما التعريض فإنه يدخل بهذا القيد لأنه يدل عليه السياق وقرائن الأحوال وليس اللفظ . وبذلك يعد التعريض مباينا ومغايرا للحقيقة وللمجاز والكناية .

من أمثلة التعريض

ومن أمثلة التعريض قول المحتاج لمن يتوقع صلته ومعروفه بغير طلب « جئتك لأسلم عليك » أو « إنى لعريان » أو « إن البرد قد آذانى » فهذا الكلام وما ماثله تعريض بالطلب ، وليست دلالته على الطلب من جهة حقيقته أو مجازه أو كنايته ، لأن المعنى المقصود يفهم من عرضه وجانبه لا من لفظه .

وقوله تعالى : **« قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »**(1) فقول إبراهيم عليه السلام : « فاسألوهم » تعريض بجهلهم وضعف عقولهم فكأنه يقول لهم : كيف تعبدون ما لا يجيب إن سئل ولا ينطق إن كلم ، وتجعلونه شريكا لمن له الخلق والأمر ؟ وذلك المعنى لم يدل عليه اللفظ ، بل دل عليه السياق وقرائن الأحوال .

ويروى أن « عثمان بن عفان » رضى الله عنه دخل المسجد وسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخطب الجمعة فأراد « عمر » معاتبته على

---

(1) سورة الأنبياء : ٦٢ ، ٦٣ .

تأخره فى الحضور إلى المسجد ، فقال له : أى ساعة هذه ؟ فقال عثمان : انقلبت من السوق ، فسمعت النداء ، فما زدت على أن توضأت ، فقوله : « أى ساعة هذه ؟ » تعريض بالإنكار عليه لتأخره عن الحضور للصلاة وعدم الإسراع والسبق إليها ، فالسؤال عن الساعة إنما ينتقل منه المخاطب إلى العتاب على تأخير الحضور ، بواسطة أمور خارجة عن اللفظ من نحو وقت السؤال ، وحال المسئول أوالمسئول عنه فإيراد السؤال عند تجمع هذه الأحوال هو ما يسمى « السياق وقرائن الأحوال » .

ويروى أن امرأة قالت لقيس بن سعد : أشكو إليك قلة الفار فى بيتى ، فقال : ما أحسن ما ورت عن حاجتها !! املأوا لها بيتها خبزا ولحما وسمنا ، والتعريض بحاجتها واضح كما نرى .

ومثل هذا ما يروى من أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت له : « يا أمير المؤمنين : مشت جرذان بيتى على العصى ، فقال لها : ألطفت فى السؤال ، لا جرم لأردنها تثب وثب الفهود وملأ بيتها حبا » فقد أحسنت تلك العجوز التعريض بحاجتها إلى الإحسان ، وفهم « سليمان » ما تقصده ليس من اللفظ ، بل من حالها ، ومن طريقة إخبارها ، وتصديها له ، وكونه هو المقصود ، وقدرته على إغاثة الملهوفين ، وذلك كله هو السياق ، فلو أن هذه الأقوال وما ماثلها مما سبق صدرت من غير محتاج ، أو كان المخاطب بها ليس أهلا لقضاء الحاجات ، لحملت على الحقيقة ، ولم تكن من قبيل التعريض فى شىء .

التعريض يجرى على ألسنة الناس بالفطرة

والتعريض كغيره من فنون البلاغة يجرى على ألسنة الناس بالفطرة فإنك تقول لمن أساء إليك : « لست قليل الأدب » معرضا به وبسوء

أدبه ، أو « لست كذابا » تعريضا بمن كذب عليك ، وتقول : اجلس بجوار الكريم أو الشجاع أو الأمين تعريضا بغيره من الجالسين ممن توجد فيهم تلك الصفات ، والذى دل على التعريض فى جميع ذلك هو السياق وقرائن الأحوال وليس الألفـاظ .

علاقة التعريض بالحقيقة والمجاز والكناية

يختلف التعريض كما رأينا عن الحقيقة والمجاز والكناية من جهة أن هـذه يدل عليها اللفظ فهى من مدلولات الألفـاظ ، بخـلاف التعريض فإن ما يدل عليه هو السياق وقرائن الأحوال .

كما يختلف التعريض عن الحقيقة والمجـاز والكناية من جهـة ثانية ، وهى أنه يختص بالمركبات ولا يرد فى الألفـاظ المفردة ، حيث يدل عليـه السياق وقرائن الأحوال ، وذلك لا يستقل به اللفظ المفرد ، وإنمـا ينشأ من جهـة التركيب ، فلا يقـال : هـذه الكلمة تعريض ، كما يقـال : هـذه الكلمـة حقيقـة أو مجـاز أو كنـاية ، فالمعنى التعـريضى مقصود من اللفظ المركب إشارة وسياقا لا إستعمالا ، والحقيقة والمجـاز والكناية مقصودة من اللفظ مفردا أو مركبا دلالة واستعمالا .

وعلى هذا فالتعريض قـد يكون مستتبعا لكلام حقيقى أو مجـازى أو كنائى فقد يكون طريق التعريض كلاما حقيقيا ، ثم يقصد منـه بالسياق وقرائن الأحوال معنى تعريضى يكون هو المقصود بالإفادة ، كما فى قول ذى الحاجة لمن يعرف حاجته ويستطيع قضاءها : « جئتك لأسلم عليك » أو « لأنظر إلى وجهك الكريم » ، فهذا التركيب حقيقى لا مجـازى ولا كنائى ، وهو طريق للمعنى التعريضى المراد من الكلام إشـارة وتلويحا لا دلالـة واستعمالا ، بواسطة السياق وقرائن الأحـوال ، وهو هنا : حـال

المتكلم وهو الاحتياج ، وحال المخاطب وهو : معرفته بحال المتكلم وقدرته على قضائها ، فلو صدر هذا القول من غير محتاج أو كان المخاطب به لا يعرف احتياج المتكلم ، أو لم يكن ممن يقصد لقضاء الحاجات لحمل على الحقيقة ، ولم يكن من التعريض فى شىء .

وقد يكون التركيب مجازيا ، ويكون طريقا للمعنى التعريضى المراد من الكلام إشارة وتلويحا بدلالة السياق وقرائن الأحوال ، كأن تكون فى مجلس فيه شخص معين ، كان يتطلع إلى منصب كبير ، ثم حصل عليه من هو أكفأ منه ، فأردت أن تعرض بعدم كفاية ذلك الشخص المعين فقلت : « أخذ القوس باريها » ، وأنت لا تقصد سوى هذا المعنى التعريضى ، كان طريق التعريض هنا كلاما مجازيا ، لكنه لم يستعمل فى معناه المجازى ، بل فى المعنى التعريضى ، بمعونة السياق وقرائن الأحوال ، بحيث لو لم تقصد هذا المعنى التعريضى ، لكان التركيب استعارة تمثيلية لعلاقة المشابهة .

وقد يكون التركيب كناية ، ويكون طريقا للمعنى التعريضى المراد ، كقولك : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » فمعناه الصريح : حصر الإسلام فى غير المؤذى — ويلزمه : نفى الإسلام عن كلّ مؤذ ، فإذا قصد به نفى الإسلام عن مؤذ معين بذاته ، كانت الكناية طريقا للتعريض ، وكان المعنى التعريض وهو نفى الإسلام عن ذلك الشخص المعين هو المقصود من الكلام بمعونة السياق وقرائن الأحوال ، بحيث لو لم يقصد المتكلم هذا المعني التعريضي لكان الكلام كناية .

المقامات والأغراض التى تستخدم فيها الكناية والتعريض

يحقق استخدام الأسلوب الكنائى الأغراض الآتية :

١ — إبراز المعنى الحقيقى فى أوضح الصور وأبينها ، وذلك أمـــر يشترك فيـــه جميع صور البيان التى توضح المعقولات وتجسد المعنويات كالكناية عن الندم بالعض على الأصابع فى قوله تعالى : « **ويوم يعض الظالم على يديه** »(٢) والكناية عن الحسرة والألم بقوله : « **.. فاصـــبح يقلب كفيـــه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ....** »(٣) .

٢ — زيادة التنفير من الصفات والأعمال السيئة كالكناية عن البخل بقوله سبحانه : « **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ...** »(٤) بتصـــوير البخيل بصورة من قيدت يده فى عنقه فلا يستطيع لها فكاكا للبعد عن البخل والحـــذر منـــه .

٣ — تجنب ألفـــاظ يعبر بهـــا عما يخجل ويستحى من ذكره ، وذلك كالكناية عن الجماع بصيغ متعددة تختلف باختلاف الأحـــوال والمقـــامات كالكناية عن ذلك مرة « بالرفث » فى قوله : « **أحل لكم ليـــلة الصـــيام الرفث ...** »(٥) والملامسة فى قوله : « **... أو لامستم النساء ...** »(٦) وإتيان الحرث فى قوله « **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أى شئتم ...** »(٧)

---

(٢) ســـورة الفرقان : ٢٧ .
(٣) ســـورة الكهف : ٤٢ .
(٤) ســـورة الإسراء : ٢٩ .
(٥) ســـورة البقـــرة : ١٨٧ .
(٦) ســـورة المـــائدة : ٦ .
(٧) ســـورة البقـــرة : ٢٢٣ .

وكالكناية عن التبول بالغائط فى قوله : ((**أو جاء أحد منكم من الغائط ...**))(٨)
وأكل الطعام فى قوله : ((**كانا يأكلان الطعام ...**))(٩) .

٤ — ومن الأغراض والمقامات الخاصة بالتعريض : التمكن من النقد والاصـــلاح والتوجيه والأمر بالمعروف والنهى عن المنـــكر ولاسيما لمـــن تأخذهم العـــزة بالإثـــم ويظنون خطأ أنهم أكبر من التوجيه ، وأسمى من أن يؤمروا أو ينهوا ، وفى مثل هـــذه الحـــالة وما يشاكلها عندما يصعب الإصـــلاح أو الوعظ وبخاصة فى بعض الفترات التى تقيد فيهـــا الحرمات ويحجر فيها على النقد والإصـــلاح والتقويم بكل ســـبله ، فى مثل هـــذه الأحوال يضحى أسلوب التعريض من أفضل السبل للتوجيه والإصلاح حيث يمكن صاحبه من تحقيق ما يريد بدون أن يعرض نفسه لمخاطر واستبداد من يوجه إليهم نقـــده وتوجيهاته . وفى مثل هـــذه الأحوال يتحقق التعريض كما عرفنا بتوجيه الحديث إلى آخرين أمرا أو نهيـــا ، ليفهم المقصودون من خـــلال السياق والقرائن المطلوب فى الوقت الذى يسلم فيـــه صـــاحب الكلام من العتاب والمؤاخذة .

الأســـرار البلاغية لفنـــون البيـــان

تشترك صـــور البيان التى تقع فى موقعها المناسب فى تحقيق عدد من الأسرار البلاغية ، مع اختلاف هـــذه الأسرار كما وكيفا من فن بيـــانى إلى آخـــر ، ومن سياق لآخـــر ، وتتمثل هـــذه الأسرار فيما يلى :

١ - الوضوح والظهور والبيان ، وسر ذلك وأضح فى أنهـــا تجعل العقلى حسيا ، والمعنوى جليا .

---

(٨) ســـورة المـــائدة : ٦ .
(٩) ســـورة المـــائدة : ٧٥ .

٢ - الإيجاز ، وبعض صور البيان أكثر إيجازا من الأخرى ، كالاستعارة التى تعد أكثر إيجازا من التشبيه ، حيث إنها مع قيامها على التشبيه واعتمادها عليه إلا أنه لا يتبقى فيها من أركانه إلا ركن واحد فقط : المشبه أو المشبه به .

٣ - تأكيد المعنى المراد وتقويته لأنها كالدعوى المصحوبة بالبينة والدليل والبرهان .

٤ - المبالغة ، ومنشؤها تأكيد المعنى وإثباته ، ولذلك لا تكون المبالغة فى المعنى ذاته ، وإنما تكون فى إثباته وتأكيده .

يقول الشيخ « عبد القاهر » فى تقرير أبلغية فنون البيان من تشبيه ومجاز وكناية على غيرها ، وأبلغية بعضها على بعض : « أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ، وأن التمثيل على سبيل الاستعارة أبلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة وأن الكناية أبلغ من الإفصاح بالذكر »(١٠) .

ثم يقول عن معنى هذه المبالغة فانها ليست فى المعنى ذاته ، وإنما فى إثباته وتأكيده ، وعن سر أبلغية الاستعارة على التشبيه ، وأبلغية الكناية على التصريح : « وليس ذلك لأن الواحد من هذه الأمور يفيد زيادة فى المعنى نفسه لا يفيدها خلافه ، بل لأنه يفيد تأكيدا لإثبات المعنى لا يفيده خلافه ، فليست فضيلة قولنا : رأيت أسدا على قولنا : رأيت رجلا هو والأسد سواء فى الشجاعة . أن الأول أفاد زيادة فى مساواته للأسد فى الشجاعة لم يفدها الثانى ، بل هى أن الأول أفاد تأكيداً لإثبات تلك المساواة لم يفده فى الثانى ، وليست فضيلة قولنا : كثير الرماد

---

(١٠) بغية الإيضاح ١٩١/٣ .

على قولنا : كثير القرى أن الأول أفاد زيادة لقراه لم يفدها الثـــانى ، بل هى أن الأول أفاد تأكيدا لإثبـــات كثرة القرى له لم يفده الثـــانى ، والسبب فى ذلك أن الانتقال فى الجميع « أى فى المجـــاز بأنواعه والكناية » من الملزوم إلى اللازم ، فيـــكون إثبـــات المعنى به كدعوى الشيء ببينة ، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ فى إثباته من الدعوى بلا بينة »(١١) .

ويحدد « عبد القاهر » ويفصل فى موضع آخـــر أسرار هذه المزايا بالنسبة للاستعارة على التشبيه ، والكناية على التصريح فيقول(١٢) :

« أما الكناية فإن السبب فى أن كان للإثبـــات بهـــا مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه ، أن إثبـــات الصـــــفة بإثبـــات دليلها ، وإيجابها بمـــا هو شـــاهد فى وجودها أكد وأبلغ فى الدعـــوى من أن تجـــيء إليهـــا فتثبتها هكذا ســـاذجا غفـــلا ... وأما « الاستعارة » فسبب ما ترى لهـــا من المزية والفخامة ، أنك إذا قلت : « رأيت أســـدا » كنت قد تلطفت لمـــا أردت إثبـــاته له من فرط الشجاعة ، حتى جعلتها كالشيء الذى يجب له الثبوت والحصول ، وكالأمر الذى نصب له دليـــه يقطع بوجوبه ، وذلك أنه إذا كان أسدا فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة ، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى عنها ، وإذا صرحت بالتشبيه فقلت : « رأيت رجلا كالأسد » كنت قـــد أثبتها إثبـــات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون ولم يكن من حديث الوجـــوب فى شيء .

---

(١١) بغية الإيضاح ١٩٢/٣ .
(١٢) الدلائل ص : ٧٢ تحقيق الشيخ/ شـــاكر .

فهرس

الموضـــوع **الصفحة**

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية

١٩٩٣/٩٧٤٦

مطبعـــة الحســين الإســلامية

٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهـر

تليفون : ٥١٠٦٧٢٤